الحلم المنتظر

* الكتاب: الحلم المنتظر
* الكاتب: إبراهيم ياسين
* مراجعة لغوية: عزيز عثمان
* تصميم الغلاف: صابرين عبدالهادي
* إخراج داخلي: سليل الفراعنة
* رقم الإيداع: 2077 /2022
* الترقيم الدولي: 978-977-6875-95-1

المدير العام: عزيز عثمان
لمراسلة الدار: daralmuntadaa@gmail.com
واتس آب: 01005186476
صفحة الدار على موقع فيسبوك: دار المنتدى للنشر والتوزيع
صدر عن دار المثقف للنشر والتوزيع
بالتعاون مع دار المنتدى للنشر والتوزيع

دار المنتدى للنشر و التوزيع
المثقف للنشر والتوزيع

9 789776 875951

الحلم المنتظر

الكاتب

إبراهيم ياسين

صدر عن دار المثقف للنشر والتوزيع
بالتعاون مع دار المنتدى للنشر والتوزيع

دار المنتدى للنشر و التوزيع

المثقف للنشر والتوزيع

مقدمة

أصعب شعور هو ذاك الشّعور الذي تكون فيه الروح بحاجة إلىٰ الكثير من الأشياء، تلك الاحتياجات المعاكسة لاحتياجات الجسد والتي تسدّها بكلّ سلاسة خلال أيامك، لكن عندما يكون الحبّ حاجة الرّوح ستعيش في نقصه، وقد يصل بك المطاف إلىٰ الجنون كما جرىٰ معي، حتّىٰ خلقت ذلك الحبّ في مخيّلتي، وأنا الآن أعيش فيه بسلام...

[الفصل ١] الحياة مرض مزمن.

يوم من أيّام شهر أيّار في مدينة دمشق، وتحديداً عند السّاعة السّادسة عند غروب الشّمس في حديقة الجاحظ، كنت أمشي متسكّعـًا لعلّي أزيح عن روحي بعض الآهات، و في إحدىٰ الزّوايا تجلس فتاة تحني رأسها علىٰ يديها، و كأنّ أثقال الدنيا قد غفت علىٰ كتفيها، تدلّىٰ شعرها وكأنّه سلاسل من الماء. مشيت حتّىٰ اقتربت منها بعض الشّيء، وحين أصبحت بجانبها رفعت رأسها وإذ بها نايا إحدىٰ صديقاتي، ألقيت عليها السّلام ومكثت بجانبها متسائلاً: أيّ حزن دخل قلب هذه الفتاة الرّقيقة لتجعلها بملامح جدّةٍ تسعينيّةٍ قد خيمت عليها جميع المصائب ؟!

سألتها :أأنت بخير؟

أجابت :لا... لست بخير

رددت: أهي الحياة ؟

قالت بنظرة حزن كادت تقسم قلبي إلىٰ شطرين دون تردّد: ظالمة أليس كذلك؟

أجبت: ربّما وربّما نحن...

هاجمتني قائلة: هناك الكثير من الأشياء التي تأتي وتكون خارج إرادتنا ويستحيل التّحكّم بها.

أجبتها: أجل ولكنّ هذه الأشياء نحن قد جنيناها لأنفسنا بأفعال مضت؛ لو أعطينا أنفسنا بعض الوقت للتّفكير بما نحن عليه لوجدنا التّفاصيل الصّغيرة والتي قد أوصلتنا إلىٰ هنا، أجابت إجابة غريبة

حرّكت كياني قائلة: لكنّني أعرف السّبب جيّداً، وإن كان كما قلت فلماذا أتت النتائج بهذا الظّلم ولم نكن ظالمين إلىٰ هذا الحدّ!؟

سألتها :إذاً فلما نحن؟

وكأيّ إجابة قد تسمعونها قالت: أراد اللّه بنا هذا فأتىٰ.

هل تعني يا صديقتي بأنّ هذه الأشياء قد أغلقت كتبها؟

أجابت: أجل أغلقت ولم نعد نستطيع خرق جدرانها.

تطرّقت لمواساتها فطرحت لها مثالاً بأنّ حياتنا كأيّ شيء من الامور المشابهة لما وراء الطّبيعة نبقىٰ بجهالة عما فيها حتّىٰ يأتي في النّهاية أحد العلماء ويحلّ لغزها و يكشف لنا حقيقتها.

فقالت: ولكن أنا أعلم أنّ ماحلّ بي لا أحد يمتلك تلك القدرة الخارقة لتغييره.

ازدادت الحيرة لديّ و تردّد في داخلي سؤال جوهريّ؛ ما الذي أصابها.. ما الذي أخمد فرحتها وقطع وصال الحياة لديها..؟ أهو اليأس..؟ ما هو اليأس.؟

هل يمكننا أن نقول أنّ اليأس هو موت الرّوح وخلودها في نعش الجسد ساكنة راقدة بلا أيّ حركة أم أنّه يصيب الحياة بغيبوبة أو خدر؟.

كرّرت بصوت خافت مرتجف لا يكاد يسمع "خائفة"... خائفة من القدر، خائفة؟

سألتها: ما القدر؟. أليس نحن من نصنع أقدارنا هكذا أذكر كان يقال.

أجابت :بلىٰ.. وهذا أكثر الأشياء المخفية، أن تنتظر نتيجة القدر، إمّا الموت أو الحياة وإن كانت الحياة فما هي الحياة التي تنتظرنا؟ هل سنعيش الحياة التي كنّا نتمناها؟

ألا تخاف بعد كلّ تلك المصائب الّتي حلّت بنا وبعد كلّ تلك الخيبات؟

حقيقةً كانت خيباتنا نتيجة لتلك الأجوبة المتهوّرة في امتحان الحياة، تلك الإجابات النّاقصة من كلّ التّفاصيل الدّقيقة جداً والتي لم نكن نملك علماً بها، ومن المحتمل ألّا نعرفها إلّا بعد مدّة طويلة أو ربّما سنبقىٰ نجهلها.

هل تملك الحقّ في كل ذلك الأسىٰ الذي تعيشه؟.

هل يوجد نتيجة نصنعها نحن ونتيجة ننتظرها؟.

عدت للحديث معها قائلاً: لو أنّ شخصاً مصاباً بالسّرطان ولا يعرف مرضه وينتظر في غرفة الطّبيب حتّىٰ يحدّثه ويعلم إن كان مصاباً أم لا، أينتظر النّتيجة الّتي قدّرتها الحياة له، ما الإحساس الذي يملكه هذا الشّخص؟ لو كان طبيباً لعرف من الأعراض التي يعيشها إن كان مصاب أم لا فبالنّتيجة هو خبير بهذا، أمّا إن كان شخصاً عاديّاً فمن الممكن أن يسيطر الخوف عليه، لكن إن كان ذو حنكة في الحياة لعرف أنّه يجب الوقوف مهما كانت النّتيجة و يجب عليه مراجعتها، الحياة مرض وكلّ منّا لديه الخبرة في حياته، أي أنّ كلّ مناّ طبيب حياته الخاص، لكن هناك الكثير من الأطباء بعضهم ناجح والآخر غير

ناجح، الحياة مرض لعين وعلىٰ كل منّا أن يعالج حياته ويزيد من كفاءته ليلقىٰ ثمار جهده.

قالت بعد بضع لحظات من الصّمت والتّمعّن:

- ماذا لو كان المريض طفلاً في السّابعة من عمره، أيتوجب عليه أن يواجه هذا المرض؟

وددت لو أخبرها بأنّ الخبرة الحياتيّة ليست بالعمر، تريّثت قليلاً وأجبتها: في حين قام هذا الطّفل بمواجه هذا المرض بشراسة وقوة، ثمّ أتيت بعد بضعة أعوام، هل ستجدينه طفلاً عاديّـًا أم أنّك ستجدين طفلاً قويّـًا مازال يصارع ويتغلب علىٰ كل عثرات المرض؟، لم تجب بل اكتفت بالصّمت والتّحديق في السّماء، كانت غصّتها كبيرة، لقد ظهر ذلك من لمعة عينيها التي تحبس الدّمع خلف جفونها. حمدت ربها وقالت:

- هذا ابتلاء ونعمة نكسب فيه أناس جوهرهم ألماس، ونتخلص من أولئك القذرين في حياتنا. نحن لسنا بحاجة لاكتساب أيّ شخص في هذه الحياة لكن كل هذا الابتلاء لاكتساب ذاتنا.. قوتنا.. صبرنا. لنكسب كلّ شيء نجهله وهو مقيم بقصر جوهرنا، جميعهم قد يتمنّون لك السّعادة والنّجاح؛ الأحباب والأصدقاء الجيران وغيرهم ولكن لا أحد سيقدّمها لك بطبق مكلّل بأزهار الياسمين والاقحوان، عندها ستعلم أنّه عليك بناء وسند ذاتك بذاتك.

تأمّلت وجه كلّ من في الحديقة واحداً تلو الأخر، ثم سألتها دون أن أنظر إليها :هل سبق وشعرتِ بالعجز لأنّ أحدهم قد قدّم لك حاجة روحك ولم تستطيعي مكافأته؟، لكنّها لم ترد

أجبت: ربّما لا لأنّ لا أحد يقدّم شيئًا دون مقابل مهما كانت العلاقة.

سألت بدهشة كبيرة: حتّىٰ أهلنا ؟!

في الحقيقة يا عزيزتي أنّ الأهل يتمنّون لنا ويدعون اللّه ويسعون لأن نلقىٰ حاجتنا، و كلّ ما بوسعهم تقديمه هي حاجات ماديّة أمّا الحاجات الرّوحيّة خارجة بقدر كبير عن نطاقهم الأسريّ...

أجابت: ربّما...

ربّما يُقدَّم لنا كلّ شيء في هذه الحياة؛ البيت والسّيّارة، المال و الرّفاهيّة، لكن من يستطيع سوانا أن يقدّم لأنفسنا الشّهادة التّعليميّة أو السّمعة الطّيّبة أو النّجاح.

من أكثر الكلمات التي تجتاح ألسنتنا وعقولنا في الحديث وفي التفكير "ربّما"، الكلمة التي وضعتني في حيرة كبيرة، لماذا كلّ الاشياء في الحياة لها احتمال واثنين وأكثر؟!

كوجود أحد الأصدقاء، أهو مصادفة حتميّة أم أنّه خيارنا؟

ما نوع هذه الصّداقة؟

أهي مستمرّة أم مؤقّتة؟

أهي ثابتة أم متزعزعة؟

هل سوف تموت في يوم ما؟

جميع هذه الاسئلة لها أكثر من احتمال من الأجوبة و ربّما لها إجابات غير منتهية.

حتّىٰ أنّ "الحمد للّه" لها احتمالات؛ ربّما نقولها إيمانـاً منّا و من المحتمل أنّنا نعزّي روحنا في أوجاعها و ربّما لغواً و ربّما...؟.

الاحتمالات في كلّ شيء، لا يمكن إثبات صحّة أحدها إلّا بمرور الوقت، فالزّمن سيكشف كلّ الأمور المبهمة.

عبرنا طريقنا ونحن نتنقل بنظراتنا من مكان إلىٰ الآخر، لم يركد ذاك الألم الثّائر في جوفها، ولم ينزل ذلك الهمّ المتسلّق علىٰ كتفيها والمتشبّث بها، و لا زلت لا أعلم ما الذي حلّ بهذه الرّقيقة، ولكنّني أعلم أنّه أكبر منها بكثير، لو لم يكن كذلك لما احتلّها، و سيمضي كما مضىٰ غيره ولن يثنيها شيء عن حياتها سوىٰ الموت.

دخلت مسكنها بعد أن ودّعتها وأوصيتها ألّا تمكث كثيراً في مرضها هذا، وبدأت طريقي إلىٰ منزلي وعقلي مشوّش بالكثير من الأسئلة وأوّلها ذاك السّؤال الذي سألته: هل سنعيش تلك الحياة التي كنّا نتمنّاها؟

من المعروف أنّني من الأشخاص المتفائلة، لكن في مثل هذه الاسئلة يبقىٰ التّفاؤل محاصراً بين الواقع والحلم، ما يجب الأخذ به حقّاً هو واقعنا فما واقعنا.؟

واقعنا جداً بائس، لا يوجد في ذهني تلك الكلمات القاسية والجارحة الكافية لوصفه.

واقعنا ليس إلّا سنوات حرب.. أشهر ضياع وحيرة ممّا نحن عليه. أسابيع شوق وحزن.. نهار خوف وليالي قلق. ساعات رهبة. ودقائق أسىٰ.

هل سنعيش الحياة التي كنّا نتمنّاها؟ لا أظنّ ذلك.

وصلت إلىٰ بيتي وكان التّفكير قد اثقل دماغي، وكأن حزن تلك الفتاة قد أيقظ ما كنت أخشىٰ إيقاظه.

دخلت غرفتي وأمسكت قلمي لأكتب شيئًا ممّا في روحي وعقلي.

في أوّل الصّفحة " الحياة مرض..

الحياة مرض ولكن أيّ مرض هي؟

تارة تهدأ أوجاعها وأخرىٰ تكاد تفتك بأرواحنا وتارة ألم خفيف..،

هل الحياة عبارة عن مرض مزمن تصحبه عدد من النّوبات أحيانًا عادية وأحيانًا متأزمة، وأيّـًا كانت يجب مواجهتها ؟ إنّ هذه النوبات تأتي في أي لحظة وتستمرّ، متىٰ تنتهي ومتىٰ ستعود مجدّداً لا نعلم، كلّ ما نعلمه أنّه علينا أن نتعايش مع ذاك المرض الذي يدعىٰ. **"الحياة"**.

[الفصل ٢] التجرد

في طريق العودة إلىٰ المنزل كان الغيم قد غطّىٰ السّماء منتظراً وقتاً مناسباً و أمراً من الخالق لتزداد أرزاقنا. كنت جالساً بمحاذاة السّائق وبعد مسافة طويلة بدأ صوت المرأة التي تجلس في المقعد الأول يتعالىٰ، كانت امرأة تقارب الخمسين من عمرها يجلس بجانبها رجل كبير في السّنّ، بدأت تتلفّظ بكلمات سيئة ومهينة وتنظر إلىٰ ذلك الرّجل الذي لم يكن يعرف أنّ هذا الكلام موجّه له، فسألها مستغرباً: هل تتحدثين معي ؟

أجابت صارخة أجل أنت تتحرّش بي وتلمسني.

أجابها مستنكراً: لم أتحرّش بك لقد أخرجت الهاتف من جيبي فحسب.

لكنّ هذه المرأة لم تصمت حتّىٰ أنّها لم تصدّق وعاودت رمي الإهانات والشّتائم والرّجل يقابلها: يسامحك اللّه أنا لم افعل شيء.

لا أعلم هل ما قاله الرّجل حينها صحيح أم أنّ الصّدق من نصيب المرأة، ولكنّ السّؤال؛ هل مات الحياء فينا ؟

عندما تخرج المرأة من أنوثتها و تنسىٰ حشمتها ولا تكتفي بالشّتم بل ترفع صوتها ليسمعها الجميع، وعندما يتعرّض عجوز لفتاة أو امرأة، عندما تموت هيبة الشّيب في رؤوس الكبار، أقول أين الحياء فينا؟.

في المرحلة الثّانويّة بدأت بالنّضوج لكن لم يكن لي بعد أيّ أفكار أو فلسفة عن معنىٰ الحياة، لم تكن إلّا دراسة ولهو ومضية

للوقت والنّظر لذاك المسمّىٰ بالمستقبل الذي نجهله، لم يكن لدي أيّ فكرة عن علاقات الغرام أو حتّىٰ عن علاقة الشّاب بالفتاة، لم يكن لدينا في ذاك الزّمان هذا الانفتاح الذي يعيشه جيل هذه الأيام، لم أعتقد للحظة أنّ هذه العلاقة تحتاج الكثير من التّفكير والنّقد والتّحليل، في هذه المرحلة بدأت التّفكير في الكثير من الأشياء والبحث عن أجوبة لأسئلة كثيرة، بدأت بوضع فرضيّات وتحليلات، فثمّة الكثير من الأشياء التي لم تتلّقىٰ قبولاً مني في هذه الحياة، فعلىٰ سبيل المثال لاحقًا كانت لديّ صديقة بالرّغم من أنّني كنت أكنّ لها الاحترام إلّا أنه كان لديها تصرف يثير اشمئزازي فقد كانت تضع صور لها من دون حجاب علىٰ مواقع التّواصل الاجتماعي في حين أنّها وفي الواقع والحياة اليوميّة كانت محجّبة، بغض النّظر يا أصدقائي عن دينها أو معتقداتها، لكنّ هذا التّصرّف كان يعكس تشوّه التّفكير لديها فما هو ذاك التّفكير الذي يطلب منا أن نفعل الشّيء وضدّه في آن واحد.

هل كانت تلك البداية السّبب فيما أنا فيه الآن؟

ربّما.

السّابع عشر من شهر تشرين الثّاني لعام ألفين و أربعة عشر عند الواحدة بعد الظّهر، دخلت المنزل ولم أجد أحداً منهم ناديت أمي، غيث، سيما، ولكن لم يجب أحد لم أعتد مذ سافر أبي أي منذ ثلاثة أعوام أن أعود إلىٰ المنزل ولا أرىٰ أحدهم هنا، جلست أنتظر ولكن لا أحد يأتي، إلىٰ أن أصبحت الثّامنة مساءً حيث طرق الباب ودخل أخي وأختي وعمي وفي وجههم أصوات الحزن تصرخ، احتضنتني

سيما وبدأت بالبكاء وكنت أسأل ما الذي حصل ولكن لا اجابات سوىٰ الصَمت والبكاء.

عرفت بعدها أنّ أمّي قد فارقتنا بنوبة قلبيّة، لم تملك شفاهي أيّ شيء تقوله سوىٰ الأنين وذرف الدّموع، لم يدرك عقلي كلّ هذا حتّىٰ رأيتها مستلقية بلا حراك، كيف سأودّعها وفي وجه الجميع تلك الدّمعة التي تنظر إلينا بشفقة.

أثناء الدّفن و أيّام العزاء كان عمّي يرافقنا ويدير كلّ الأمور، ولكن حالما انتهىٰ العزاء لم نعد نراه في الأسبوع مرّة أو اثنتين وبعدها في الشّهر.

كان علينا التّكّيف في العيش دون والدين، بدأنا نتعلّم كلّ الأعمال التي كانت أمّي تقوم بها، و والدي كان يرسل المال ويحدّثنا كلّ أسبوع مرّة بحجّة أنّه يعمل، وهكذا كانت تمرّ الأيّام؛ في كلّ مساء نجلس ثلاثتنا لكلّ منّا مزاجه ولكنّنا متحابّين، وبعد أن يغادر الجميع إلىٰ غرفته كنت أذهب إلىٰ غرفة أمّي لأملي عليها ما كان يحدث في كلّ يوم.

وبعد شهرين ألقي القبض عليّ بهذه الحالة من قبل سيما التي أخذت تحضنني وتذرف دموعها، و طلبت أن أخبرها بكلّ شيء أريد أن أبوح به ولكن في الكثير من الأيّام لم أحدّثها بل كنت أخبر أمّي.

في يوم حفل تخرّج أخي غيث من كليّة الهندسة المدنيّة وبعد الاحتفال بغيث، خرجنا إلىٰ أحد المطاعم علىٰ شرف تخرّجه، و كان ذلك في الصّيف الذي سأدخل بعده مرحلة الشّهادة الثّانويّة.

بقينا خارجـًا حتّىٰ العاشـرة مسـاءً، دخلنـا البيـت واذ بالأضـواء منارة، كانت مفاجئة جميلة في البداية عندما ظهر أبي و عانقنا وأخذ كلّ منّا هديّته، كان أبي مغرم بالكتب وكانت هداياه عبارة عن كتاب و لكنّني طوال كلّ تلك السّنين لم يكن لـديّ شغف بـالقراءة، أمضىٰ في هذه العطلة أسبوعين وفي كلّ يوم كان يخرج هـو وغيـث منذ الصّباح ولا يعودون إلّا في المساء. كنت أقضي وقتي بمساعدة سيما وكنّا نريد أن نعرف ما الذي يدور ولكن لم ننجح بذلك، وقبل يومين من موعد السّفر، جمعنا والدي ليخبرنـا بـذلك الخبر السّيّء بالنّسبة لـي ؛غيث سيسافر ليعمل في المكان الذي يعمل هو فيه. لم ارضَ بذلك ولكن لم يكـن رأيـي ذو أهميّـة بالنّسـبة لهـم فالتّـذاكر قطعـت ولـيس علـيّ إلّا إعطائهم قبلات الوداع والمضيّ إلىٰ غرفتي.

دخلـت إلـىٰ غرفـة أمّـي لأشكو لهـا فعـل أبي فلـم يكتفـي بغيابـه وتركه لنا، ها هو الآن قد سرق غيث منّا وأخذه معه وتركنـا مـن جديـد وحيدين وكأنّنا لسنا أولاده.

كانت تلك البداية في الابتعاد الذي كان بالأساس موجود لوالدي ولكن بدأ يكبر، فكيف لأحدهم أن يـترك أولاده وحـدهم ومـن بعـدها يأخذ كبيرهم ليتركهم يتخبّطون لوحدهم في هـذه الحيـاة، كيـف لـه أن يغيب دون أن يسمع أصواتهم ويراهم، ما هذا القلب الذي يملكـه هـذا الرّجل ؟!

إن كان يظنّ أنّ ذاك المال الـذي يعطينـا إيّـاه سيجعلنا نحبّـه فهـو مخطـئ، فأنـا لا أحـبّ أحـداً لا يقـدّم لـي الاهتمـام، لا يشـعرني بتلـك الصّـفة التـي يصـف بهـا شخصـيتي، فكيـف أكـون ابنـه ولا يعلـم كيـف

أقضي أيامي، هل أعيش الضّياع أم لا هل أحافظ علىٰ الدّراسة أم لا ما هذه اللّامبالاة التي يعيشها.

مرّ شهر علىٰ مغادرتك يا غيث، الشّوق قد زاد علىٰ الرّغم من أنّك تحدّثني في كلّ ليلة، لك في قلبي مكانة خاصّة، كنّا في كلّ ليلة نجلس ونشاهد الأفلام و تعمّ ضحكاتنا كلّ الأرجاء.

لم يعد لي تلك الصّداقات التي كانت، فقد بدأت الاكتفاء بذاتي منذ وفاتك يا أمّي، وسيما كانت تقضي كلّ وقتها برفقتي، ربّما الشّعور بأنّنا وحدنا في هذه الصّحراء يرغمنا علىٰ البقاء متكاتفين سويّاً دون البقيّة، كانت سيما في السّنة الثّالثة في قسم الأدب الرّوسيّ و كانت ذات قدرة كبيرة علىٰ تعلم اللّغات، علىٰ عكسي تماما فأنا أجد صعوبة في تعلّمها، وفي إحدىٰ اللّيالي كنت أشكو صعوبة التّكيّف مع هذه الحياة لأمّي حتّىٰ قاطعتني سيما، أغلقت الباب وجلست بجانبي وقالت لي: يجب إخبارك بشيء لا أريد أن أفعل هذا دون علمك وإن كنت أكبر منك؛ أخبرتني بأنّها تحبّ شابّاً يدعىٰ أمير متخرّج من قسم الكيمياء وسيتقدّم لخطبتها بعد أسابيع وهما علىٰ علاقة منذ شهر، ولكنّ الأمر السيء أنّه سيسافر بعد الانتهاء من الاجراءات إلىٰ كندا للعمل، وربّما لن يعودا مجدّدا، والأمر الذي يقف في طريقها هو وجودي وحيداً هنا.

ماذا سأقول في هذا الحبّ سوىٰ أنّني سأتمنّىٰ لها السّعادة التي تنتظرها وهذا يكفيني، ولكنّ الخوف من تعثّرها في هذا الطّريق كان موجوداً.

سألتها كيف تراه وهل تحبّه فعلًا فأجابتني بأنّه شخص جيّد، وما كان عليّ إلّا أن أدفعها للذّهاب معه فليس من اللّائق إيقاف حياتها من أجل أنانيّتي، ولكن لا أخفي عنكم لقد بدأ الخوف يتخبّطني في كلّ حين، فبعد أن كان بيتنا مشرقًا غادرت كلّ الأضواء منه، ستغادر سيما ولن يبقىٰ سواي، فكّرت بالسّفر خلال تلك الفترة و اللّحاق بأبي وغيث وكان شيئا منطقيًّا.

تعرّفت علىٰ أمير وكان شخصًا طيّبًا بالفعل، وجاء الوقت الذي يجب إخبار غيث وأبي بالأمر.

في هذه المكالمة كان هناك شيء مختلف، فهناك الكثير من أصوات الأطفال، سألته أين يجلس وأجاب أنّه بالبيت، لأعلم بأنّ تلك الأصوات هي أصوات إخوتي من أبي، أي أنّه متزوّج منذ زمن سراً ولا علم لنا بهذا، والذي أثار غضبي أكثر هو معرفة غيث واخفاؤه الأمر عنّا.

لم أكمل الحديث معهم، اعطيت الهاتف لسيما وخرجت من المنزل.

كانت السّاعة تقريبًا العاشرة مساءً، في نهاية الشّارع كانت هناك دكّان اشتريت منها علبة سجائر للمرّة الأولىٰ في حياتي وجلست مع غضبي ذاك، في الحقيقة لم يكن الغضب لزواج أبي فهذا حقه، ولكن كان لأنّه أخفىٰ الأمر عن أمّي الرّاحلة و بسبب الإهمال الذي كنّا نعيشه، لقد فضّل أولئك علينا، حتّىٰ أنّه نسينا ربما، أيّ أب هذا!؟

بقيت طوال تلك الفترة أتساءل لم يهملنا، وأيّ عمل يشغله عنّا وعن السّؤال، ولكن الآن توضّحت الإجابة؛ امرأة جميلة وأولاد صغار قد أشغلوه عنّا وكأنّنا أتينا من صلب السّماء. عدت إلىٰ المنزل وقد عشّشت رائحة التّبغ في كلّ أجزائي، دخلت البيت وسيما تنتظرني، أقبلت إليّ ولكنّ رائحتي أبعدتها وقلّبت تلك النّظرة التي كانت تحمل الخوف والألم إلىٰ غضب وبدأت بالصراخ لكنّني لم أكترث لكلامها.

دخلت غرفتي، بدّلت ملابسي وجلست في غرفة أمّي بعد أن أقفلتها، وبدأت بالشّكوىٰ لها لعلّها تسمع ما الذي حلّ من بعدها، وكيف أسكن ذهابها الألم في قلبي وزاده فراق إخوتي وكذب أبي وإهماله، ظللت أشكو لها لساعات حتّىٰ عاندني النّوم وعلىٰ سريرها نمت.

في الصّباح التّالي حاولت سيما أن تجعلني أتقبّل الأمر وأتكيّف معه، لكنّ هذا الأمر غير ممكن، كلّ ذلك الألم الذي تسبّب به لن يذهب في أيّ لحظة.

في يوم خطبة سيما وفي الصّباح كان أبي وغيث يتحدثون إلىٰ سيما، حتّىٰ أولئك الذين يدعون إخوتي يتكلّمون.

كان لديه ابنة بيضاء بعيون زرقاء جميلة تسمّىٰ رهف، وطفل في الثّالثة من عمره يدعىٰ علي، أراد الحديث معي لكنّني رفضت ذلك وبقيت علىٰ موقفي، كيف اسامحه وهو يتنّعم بالحياة وأتنعّم أنا بكلّ هذه الآهات

كيف أهدّئ غضبي عنهم وعن حياتي
فأنا في الويل ولا أحد تعنيه معاناتي
لن أكسر الأثاث في بيتي فالمال قليل
أشعر بالذّنب لأنّي هنا وكأنّي خلقت لأرعىٰ آهاتي
أجرّ السّلاسل في عنقي سلاسل التّعاسة في قلبي
وكيف أغفر إهمالهم وأنا كلّ يوم أفقد إحساسي
أفقد أحلامي وأيامي وأنسىٰ صوت ضحكاتي
وليس فيهم عزيز يسال لمرّة عن حالي
كئيب أنا بما لم تقترفه يدي
وأضحك من غصّة الرّوح علىٰ حالي
فيا ليتهم عرفوا ما اقترفوا وما صنعوه بشبابي
يا ليتهم عادوا قبل أن تسقط المغفرة من قاموس كلماتي.

❊❊❊❊

كانت فرحة ممزوجة بغصّة الوحدة وغصة الفراق الذي ينتظرنا بعد شهور، ولكن كان علينا العيش. لم أرَ سيما بهذه الحالة من قبل عندما دخلت إلىٰ غرفة أمّي ووجدتها تبكي وتقول: سيأخذونني من بيتي ولكنّك لن تودّعينني، كم أنّ هذه النّار التي القتها الحياة في ثنايا قلوبنا مؤلمة.

بدأت رحلة الشّهادة الثّانوية مع كل تلك المصائب التي حلّت، لا أعلم ما الذي يخفيه القدر لي أيضاً، كانت شخصيّتي قد تغيّرت، بعد كلّ هذا لم يعد لديّ قابليّة للنّقاش أو احتمال الصّداقة المليئة

بالأفكار البالية، كان شغلي الشّاغل وقتها هو التّفكير في الدّراسة وما الذي سيكون بعد سفر سيما، كنت أقضي اللّيل في التّدخين الذي كان يثير غضب سيما ولكن اللامبالاة كانت تعيش بي فأنا يتيم الأمّ والأب تقريباً، حاولت جاهدا التّكيّف مع أمر السّفر لكنّه كان صعباً وحاولت نسيانه خلال هذه الايام.

في كل مساء كان أمير ضيفاً، يدّق الباب وبيده وردة أو هدية، وأذكر أنّني في بداية دخوله كنت أغضب و ينتابني شعور الكره لهذا السّارق ولكنّني بعد أن أرىٰ تلك البسمة التي تزيّن وجه سيما أنسىٰ كلّ ذلك.

بين كلّ أسبوع وآخر كانت تجلس سيما محاولة اقناعي بالتكلّم مع والدي وأنّه يريد أخذي للعيش معه ولكنّني رافض لهذه الفكرة فليس باستطاعتي العيش مع اخوة من أمّ أخرىٰ يفضّلهم أبي علينا، وكان القرار النّهائيّ أنّني سأعيش وحدي في البيت التي عاشت فيه أمّي، ولكن كان هناك حرقة تعتريني بأنّني لن ألتقي الطّفلان الصّغيران - اخوتي - لقد كنت أنظر إليهما سراً كان جمالهما يؤكل ولكن لا فائدة مع ذاك الاب.

ومرّت الأيّام متشابهة لا اختلاف فيها إلّا بحجم القلق والتّفكير بما سيحصل إلىٰ أن جاء ذلك اليوم؛ بعد خمسة أيّام عرسها وفي اليوم الآخر ستسافر، كنت أجلب بعض الحاجيّات لها من السّوق كانت كثيرة ربّما بقيت ساعتين أو أكثر من مكان لآخر وعدت بعدها إلىٰ البيت لأجد أبي وزوجته وغيث واخوتي قد استعمروا البيت، ظنّ أنّي سأستقبله كما أستقبله في كلّ مرّة ولكنّني لم أستطع أن أتمالك نفسي،

وبدون سلام أخذت بعض أغراضي وغادرت المنزل. رنّ هاتفي كثيراً حتّىٰ نفذ شحنه، وبقيت أمشي لا أعرف إلىٰ أين أذهب جلت كثيراً وقد غطّىٰ الغضب عينيّ، وبعد الثّانية عشرة كنت أجلس أمام البيت وإذ بأمير يخرج من هناك ركبت معه في سيّارته، كان يعرف كلّ ما حصل لذا أبقاني في بيته هذه الفترة

بدأت أجول أرصفة الطّرقات أفكّر بالذّنب الذي اقترفته حتّىٰ أوصلني لهذا، أمّا حضوري لزفاف أختي كان سيّئًا بوجودهم، حاولت أن تجمعني بهم لكنّني رفضت وأخبرتها أنّني سأترك الحفل إن فعلت.

ذهبت سيما مع زوجها، وذهب أبي وزوجته إلىٰ بيتنا ولحق غيث بي ولكنّني نهرته و أخبرته أنّه لا يفرق عن أبيه بشيء فهو شريكه بذلك، كيف تقبّل أن يهملنا والدنا من أجل أولاده أمن أجل أن يبقىٰ في عمله ذاك، قضيت اللّيل بين الأزقة وسجائر الهمّ.

في الصّباح ذهبت لتوديع سيما وفي المطار كان موعد سفر أبي قريب من موعد سيما ووقفت بمحاذاة سيما وكنت أسترق النّظر لإخوتي من بعيد حتّىٰ جاءت سيما، ظننت أنّها سترحل ولكنّها طلبت منّي طلبها الأخير؛ أن ألقي التّحية عليهم فقط. لم أستطع رفض طلبها فأنا أعلم أنّ لقائي بها سيكون مستحيلاً بعد الآن، ذهبت إلىٰ أبي وبدأ بتمثيل الحنان بالتّقبيل و الاحتضان ولكن لم يكن يهمّني تقبيله، أردت فقط تقبيل هذين العصفورين الصّغيرين، أماّ غيث فكان النّظر في عينيه كافيًا ليزيل ذلك الحقد عنه، كان مجرّد سلام لا أكثر فلا صفح عن أبي أبداً.

الآن جاءت لحظة تجرّدي من الجميع، من اليوم سأبقىٰ لوحدي في مضمار هذه الحياة، من اليوم سأواجه مشاكلي وحدي، عليّ أن أكون قويّـًا.

بعد رحيلهم عدت إلىٰ البيت لأجد هديّة من أبي كعادته "كتاب وبعض الثياب وفي ذلك الدرج مبلغ مالي". للمرّة الأولىٰ فتحت ذلك الكتاب الذي جلبه، كان ديوان " أنا رجل واحد وأنت قبيلة نساء" للشّاعر نزار قبّاني، بدأت بالقراءة للنّسيان وللتّخفيف من ذاك الحزن، قرأت القليل لكنّني لم أستطع الاكمال، ذهبت إلىٰ غرفة أمّي وأخبرتها بالذي حدث وعن شوقي في هذا الأسبوع لها وسألتها هل كنت قد أخطأت الحكم علىٰ أبي وأخي، هل كان عليّ مسامحتهم من أجل إكمال الحياة معهم ؟ لكنّني تراجعت عن قولي، وما هذه الحياة التي سأعيشها بمكان سأكون فيه منقوص المكانة، كيف سأعيش وأنا أنظر إلىٰ وجه من ظلمني لسنوات وأنا في بداية عمري، وهل سأتحمّل رؤية أحد قد أخذ مكانك يا أمّي؟! سألتها كيف سأمضي حياتي بعد كلّ هذا، هل سأكون أنا ؟ ولكنّها لم تجب.

[الفصل ٣] العزلة واكتشاف الذات.

لا بدّ أنّنا نعرف بأنّ الانتقال بين المراحل العمريّة للإنسان يحدث الكثير من التّغيّرات في صوت العقل الباطنيّ لكلّ شخص، لكن لابدّ أنّ هذه التّغيّرات تأخذ الذّكريات المحتفظة في ذاكرة القلب بعين الاعتبار. بعد تلك المرحلة وبعد كلّ تلك الأيّام الخبيثة، بدت لي في تلك اللّحظات تغيّرات غريبة، فعلىٰ الرّغم من أنّني في مدرسة والكثير من النّاس حولي، كنت أميل للجلوس وحدي، أصبحت أكره الاحتكاك بالنّاس، لا أعلم لم، ربّما للحفاظ علىٰ روحي من المزيد من الخيبات، أجلس وحدي لساعات استمع لصوت عقلي وقلبي، التّفكير والمزيد من التّفكير في الواقع و في المستقبل وغيره، حاولت قراءة الكتب الأخرىٰ التي جلبها أبي، لم أنجح كثيراً في ذلك لكنّني نجحت في قراءة الشّعر و لا سيّما شعر الأستاذ نزار قباني وجدت في أشعاره الكثير من الكلمات العميقة التي جسّد بعضاً منها شعوري.

جميع ما قالوه عني... صحيح

جميع ما قالوه عن سمعتي..

في العشق والنّساء. قول صحيح

لكنهم لم يعرفوا أنّني

أنزف في حبّك مثل المسيح.

كان لديّ بعض الاهتمامات بالرّسم أو ما شابه، وبدأت بكتابة بعض من السّطور لعلّي أبوح ببعض آلامي وأعزّي القلب والرّوح فيها، للوهلة الأولىٰ كنت أظنّها بعض الكتابات الفارغة، عبارة عن كلام متشابك و مذكّرات توضع نهاية اليوم في الدّرج ويغلق عليها لحين الكبر.

قيل أنّ الفنون مثل الكتابة والرّسم والتّعبير والغناء كلّها أشياء تكتسب مع الأيّام، وبعد أن نمت وحدتي وعزلتي و فكري وفلسفتي فكّرت في نفسي؛ أيعقل أن يكتسب أحدهم الفن وهو غير موجود فيه! لا يعقل ذلك، إنّ الفنون مواهب تخلق مع الشّخص والتّعلّم الذي يتلقّاه ينمّي هذه الموهبة حتّىٰ يجعل منها فنّاً عظيماً.

لا يزال بعضاً من حطام قلبي المتناثر في زوايا البيت، كأيّ يوم من تلك الأيّام أجلس في غرفتي وقد أنهيت بعض واجباتي بنور خافت أفكّر.. أتألّم. أغضب. أضحك.. ثمّ امسك بقلمي وأكتب بعضاً من السّطور، كان في صغره يحلم بعالم متكامل ومستقبل ينشر الفرح فيه، لكنّ الواقع فاجأه بخيبات وخيبات...، وبعدها أهرب إلىٰ لوحة أرسم فيها تخيلا لفتاة أحلم بها لعلّها تنقذني من وحدتي، خلقتها بخيالي وكتبت تحتها

"سلام إلىٰ قلم يأخذ الهموم ويريح البال، سلام إلىٰ أعصاب هادئة تعينني علىٰ الخروج من أوهام الحياة. ومتاعب التّفكير. وألف حسبان وتقدير"

كانت رسالة إلىٰ تلك الأشياء المتناثرة علىٰ طاولتي والتي تعمل علىٰ تجميع فتات قلبي وبنائه من جديد، أي أنّها كانت عبارة عن فرقة إنقاذ.

مع مرور الوقت وأنا أستمع إلىٰ ذاك الصّوت العميق في داخلي بدا لي وكأنّه يحدّثني عن ذاتي قبل بعض الأشهر مقارنة بها اليوم، هذه الوحدة قد كشفت الكثير من الأشياء الغامضة المتربّعة في داخلي والتي لم أكن أتوقّع أنّها من الممكن أن تكون عندي؛ الرّسم. والقدرة علىٰ التّلاعب بالكلمات والتّعبير بطريقة تذيب القلب كما قالت إحدىٰ صديقاتي في وقتها.

وما زالت الأيّام تسألني عن تلك الحقيبة المزروعة علىٰ كتفي والتي ترافقني في كلّ حين وتنام بين ضلوعي، لم تعرف أنّها تحتفظ بصوت قلبي وعقلي وذاكرتي وحياتي التي أصيبت بلعنة أبديّة ممّا وجدته من بني البشر وهم عمّ يفعلون غافلين..

لكن هذه اللّعنة قد سمحت لأغصان روحي أن تبدأ بالتّبرعم والظّهور، وأن تتّسع آفاق فكري وتتجذّر في جلّ جوانب هذه الحياة.

كان الجلوس في كحل اللّيل والاستماع الىٰ ذاك الهدوء مع أصوات السّمفونيّات العالميّة برفقة أحلامي العزيزة، و مع هاتين الموهبتين اللّتين غيّرتا طريقي بنسبة كبيرة - الرّسم و الكتابة - أفضل بكثير من العيش علىٰ مسرح الحياة بين كلّ هؤلاء الممثّلين وكلّ هذه المعدّات المزيفة.

أمّا الرّسم فقد كان أجزاءً من الاختصاص الجامعيّ، و هو عبارة عن فنّ شبيه بالرّسم أو يمكن القول بأنّه أحد الاختصاصات المتشعّبة

من الفنون الجميلة وهو الهندسة المعماريّة، و بالنّسبة للكتابة والتي لا تزال تلازمني في كلّ تفاصيل يومي، كنت أجلس في كلّ يوم قبل النّوم، أغمض عينيّ وأبدأ بتخيّل قصص أكتبها وأتمنّىٰ لو أن إحدىٰ هذه القصص تكون واقعيّة يومـًا ما. لم يقرأ تلك القصص إلا صديقة واحدة من وراء الشّاشة وكلّما أرسلت لها تقول بأنّني مصاب بمرض أحلام اليقظة، لا أظنّ أنّها محقّة إنّما هو هوس للكتابة وإيمان منّي بأنّ الكلمات المعبّرة هي تلك المتّصلة مباشرة بحبال الإحساس والتي تصل إلىٰ القارئ بطريقته ولا يمكن أن تصل إن كانت تلك الحبال متقطّعة.

أكتب... وأكتب.. عن شاب يتيم كان قدوة لأخته. عن شاب أحبّ وسعىٰ ومن ثّم وصل. وكثير من الأفكار التي تتعلق بعقول الشّباب في هذه المرحلة من الحياة و بعض الفلسفات والأقوال والعبارات التي أعزّي بها قلبي، لا زلت أذكر تلك الحروف التي قلتها في ليلة، بعد أن غازلتني إحدىٰ صديقاتي وقالت بأنّ بسمتي هي أجمل ما أملكه، فقلت:

ابتسم...
فلا شيخ عجوز سيعود له شبابه
ولا جثث سينفخ فيها و تعود لحياتها

ابتسم...
فما القمر بساطع في النّهار
ولا النّور بكائنٍ لولا الشّمس

ابتسم...
فما حياتك بيد إنسان
ولا روحك مثبّتة بعلاقاتهم

ابتسم.
فليس بضارّك أحد واللّه معك
ولا شيء يخمدك ما دمت مع اللّه

ابتسم.
فبسمتك سرّ سعادة أحدهم
وسبب هدي الكثير في السّبيل

ابتسم.
ودع الحزن في نعشه
والهمّ ضائع في سراب اللّيل

ابتسم..
و اجعل الحياة تحلو مع بسمتك.

لقد كانت كلمات مبتدأ لكنّها دعمتني في سبيلي.

بعد تلك الأيّام وبعدما رمّمت فتات قلبي، لم يكن اللّيل للحزن واليأس والنّوح والبكاء بل كان من أفضل أوقات السّعادة والفرح.. والضّحكات المخفيّة. والأمل والأحلام... والتّفكير والإصرار.، كان كلّ شيء يذوب عندما يحلّ الصّباح وتدقّ ساعات السّعي والاختلاط والضّجيج، وفي كلّ صباح ابدأ أتطلع بلهفة لمساء يطفو بالأمنيات والأحلام التي تسكن في حجرات العقل وتسيطر علىٰ عروق الجسد وأشواق للقاء ذلك العالم الخالي من كلّ نبات الحزن فلا تغفو بذوره في تربتها ولا ينبت زرعها.

لماذا نحن بهذا؟

لماذا أتىٰ هذا الشّيء؟

لماذا تصرفت بتلك الفظاظة؟

لماذا أتت النّتيجة بهذا السّوء؟

وكل سؤال قد يخرج من فمك في لحظات الغضب والضّيق يتسرب من قلبك في لحظة ما،

لن تستطيع الإجابة علىٰ هذا إلّا في حالة واحدة؛ أن تنصت لصوتك الدّاخليّ و من بعدها تعلّم.

ماذا أقول بعد كلّ هذا؟

انظر يا صديقي وأعلم بأنّ الفراغ الكبير الذي نعيشه في مرحلة من عمرنا من الممكن أن نعيشه في كلّ يوم، و قد يتيح لنا اكتشاف كلّ شيء عظيم في داخلنا.

[الفصل ٤] الكمين.

بينما أجلس في الحديقة القريبة من منزل نايا الصّديقة الوحيدة التي دخلت الاختصاص ذاته، أنتظرها للذّهاب في أوّل يوم إلىٰ كلّيتنا جاءت امرأة أربعينيّة وجلست بجانبي، كنت أقلّب هاتفي، تبسّمت لي ثمّ سألتني أأنت في المدرسة أم ماذا، لا أدري لماذا سألت ربما حقيبتي التي احمل فيها دفتري الخاص وكتاب الكسندر تشايكوفسكي وكتاب شعر لنزار وبعض الأوراق والحاجيّات التي ترافقني دومـًا، أجبتها لا لقد دخلت الجامعة حديثًا وسألت ماذا تدرس، أجبتها هندسة معماريّة، هزّت برأسها وغيّرت ملامح وجهها للإعجاب وقالت: ما شاء اللّه، ليحميك اللّه، بدأت شكواها من بعدها وقالت لديّ ولد سيتقدّم هذه السنة لامتحان الشّهادة الإعدادية، وبدأت بعدّ الموادّ التي قد وضعت لها استاذ خاصّـًا ومع ذاك الكمّ من الأساتذة إلّا أنّه لا يحبّ الدّراسة وغير مهتمّ بها، قلت لها: كل شخص حسب تفكيره، لا أعرف لماذا أجبتها بذلك الجواب وقتها ربّما كان تأثير الكتابة والفلسفة قد بدأ يتجسّد في شخصيّتي، تعجّبت المرأة وقالت: حسب بيئته ورفاقه، عدّدت كلّ شيء إلّا التّفكير، ربّما كان التّفكير الخاص بهذا الشّخص يوضع علىٰ الرّفّ الخاصّ بالخردة، وأكملت: إنّ أباه متعلّم واخته كذلك إلّا هو لا يحبّ العلم. كرّرت قولي كلّ شخص وتفكيره، دعت لي بالتّوفيق وغادرت، لكن ربّما لم تصلها الرّسالة التي أردت إيصالها لها فما قصدته بأنّ الدّراسة والحبّ والدّين والعمل وكلّ شيء في الحياة لا يمكن أن يتواجد إلّا من قناعة

الشّخص. وأخيراً جاءت نايا، كان وجهها مشرقاً وقد تزيّنت وكأنّها تذهب لافتتاح أوّل حفل توقيع لها.

كان دخولنا أوّل يوم أشبه بدخول متاهة لا نعرف فيها أحد، دخلنا إلىٰ أحد المراسم وتعرّفنا علىٰ القليل منهم وكان من بينهم فتاة تجلس وحدها تدعىٰ ميرا، ذات عينان بنيّتان وشعر يميل إلىٰ اللّون الأشقر وطويل بعض الشّيء وفي وجهها بعض النمش زادها جمالاً.

لقد عرّفتنا نايا علىٰ الكثير في أوّل أسبوعين بفضل صفتها الاجتماعيّة، أمّا بالنّسبة لميرا فلم تكن ذات صفة اجتماعيّة فقد اكتفت بصديقة واحدة فقط.

ولكن كعادتي كنت أحبّ ألّا أدخل في أمور الجماعات كبيرة العدد، وأبقيت السّهر صديقي الأبديّ فخلال اللّيل أجلس وحدي اكتب قليلاً وأدخّن قليلاً وأقرأ أشعاراً كانت من نصيبي ونصيب اخوتي من هدايا ذاك المدعوّ أبي

أمّا بالنّسبة لأبي فلا كلام بيننا منذ سفره، يتّصل غيث كل أسبوعين مرّة واحدة وبكلمات قليلة ويغلق، أمّا سيما فقد بدأت العمل كمترجمة للأدب الرّوسيّ وإن أردت الكلام معها يتوجب عليّ المكوث لساعة حتّىٰ تتاح الفرصة لي لهذا كان الكلام بيننا قليل، وأمّا أمّي فهي الوحيدة التي تسمعني في كلّ مرّة أريد الحديث فيها معها ومهما طال كانت تبقىٰ وتسمع.

في يوم كنت و نايا نتسكّع في الشّوارع القريبة من منزلينا، كانت تمشي أمامنا فتاة لها مظهر ميرا من الخلف، قلت لها أنّها ميرا ولكنّها

لم تصدقني حتّىٰ صرنا بجانبها، وبعد الحديث عرفنا أنّها تسكن في هذا الشّارع الذي يبعد عنّا القليل، وهنا بدأت صداقتنا تزداد فقد أصبحنا ثلاثي أينما بحثت عن أحدنا تجد الآخرين، في بعض الأحيان كان هناك خيانة من نايا التي كانت تذهب مع صديقاتها الحديثات في الكليّة ولكن لا مهرب لها منا.

لقد كانت ميرا فتاة تملك من الجمال ما لا يكتب، مرحة. فكاهيّة.، وفي الوقت نفسه مزاجيّة. صغيرة العمر.. كبيرة العقل. صفات غريبة اجتمعت جلّها في تلك الفاتنة لم يسبق و أن سمعت عن اجتماع كلّ هذه الصّفات معًا، وكان لاهتمامها بي وحديثها ونظراتها تأثيرات قد أخرجتني بعض الشّيء من الوحدة التي كنت أعيشها، فلم يعد اللّيل للتّأمّل والكتابة والقراءة بل أصبح للحديث معها، وحتّىٰ تلك البسمة التي نادراً ما كانت تخرج بعد تلك الأحداث أصبحت أساسيّة في وجهي معها، كانت نايا بغياب ميرا تقول أنّي أحبّها ولكنني كنت أنكر، فأنا لم أحبّ فتاة من ذي قبل و أرفض الدّخول في مثل هذه الأمور، وكيف لي أن أتعلّق بشخص سيرحل يومًا عنّي ويتركني كما فعلت عائلتي فتصمت ولا تبوح بأيّ كلمة بعدها.

وفي كلّ يوم كان اهتمام ميرا يزيد وجمالها يزداد وعيناها تمطران خيوط النّسيان علىٰ عقلي، وفي الحقيقة بدأت التّفكير بما قالته نايا؛ ماذا عن الحبّ انا لا أعرف عنه سوىٰ القصائد وبعض الفلسفات التي كتبتها بأنّ الحبّ هو الثّبات والإيمان والمضيّ لإسعاد من تحبّ من

دون أيّ مقابل، ولكن إن كنت قد أحببتها فيجب عليّ أن أعرف ما شعورها هل تحبّني أيضاً وإلّا خسرت تلك الصّداقة الموجودة بيننا، ولكن كيف لي أن أعرف فأنا جاهل بترجمة الأفعال إلىٰ مشاعر و بكلّ هذه الامور المتعلّقة بالعاطفة، تركت تلك الأمور للوقت لربّما بعدها يتضح شيء ولم أعد أفكر بها.

في أحد الأيّام جاءت إحدىٰ الزّميلات لطلب المساعدة في أمورها، ذهبنا إلىٰ الاستراحة و جلسنا علىٰ المقعد وبدأت بشرح احتياجها وفجأة ظهرت ميرا وما إن نظرت إلينا حتّىٰ اشتعلت نار عينيها والغضب في وجهها معلن، كانت أولّ مرّة أرىٰ فيها غيرة ميرا أو ربّما كانت المرّة الأولىٰ التي أجلس فيها مع فتاة غير نايا لوحدنا، طلبت الاذن منها وذهبت إليها وبكبرياء قالت: ما الذي أتىٰ بك إلىٰ هنا اذهب لصديقتك لا تدعها تنتظر كثيراً و غادرت.

ماذا أفعل لها وما هذه الغيرة أيضاً لسنا سوىٰ صديقين لمَ ردة الفعل هذه! لم أفكّر كثيراً بالسّبب ولكنّها خاصمتني ولم تعد تحادثني، ولأنّني مقتنع بأنّني لم افعل شيئاً خاطئاً لم أكلّمها أو أبرّر لها شيء وهذا ما أثار غضبها.

وفي يوم من الأيّام دخلت القاعة وإذ بميرا تركض نحوي والتقينا عند بابها حتّىٰ كدنا نصطدم، نظرت في عينيها البنيّتان اللتان تملكان سحراً يجعلني أنسىٰ أين أقف، ابتعدت بكبريائي عن طريقها لكنّها بقيت تنظر وبعد هذا الموقف ما كان إلّا أن نعاود الحديث ونتراضىٰ، ولكن إلىٰ متىٰ سأبقىٰ في هذه الحالة الغريبة ما هذا الذي نعيشه لماذا

تلك الغيرة الشّديدة لماذا هذا الغزل لماذا كلّ تلك الكلمات والاهتمامات أهو الحبّ أم ماذا!؟.

ما هذا الذي أقوله حبّ ماذا، أيعقل أن أدخل في الحبّ وأنا لا أثق بأحد ما هذا الهراء الذي أتحدث به.

شاء القدر بعد ثلاثة شهور كنا قد تواعدنا في الحديقة وبينما أنا خلفهم سمعت نايا تقول لميرا لن يحبّك إنّه ذو طبع غريب يعشق الوحدة و لا يثق بأحد و هذا الأمر سيبقىٰ معه ولن يتركه لقد عاش أيام جارحة كافية لقتل أي شخص تصيبه و قد بقي صامداً دعيه وشأنه ولا تلقي به إلىٰ التّهلكة بدخوله في عالم الحبّ ولا نعلم ما الذي سيحصل، وعندما ظهرت لهما غيرتا الموضوع قائلتان قضينا بعض الوقت سويّـًا.

الآن فهمت سبب تحريض نايا لي علىٰ حبّ ميرا، إذاً ميرا واقعة في حبّي لقد أعادت تلك الكلمات اعصار الحبّ الذي بدأ منذ شهور

أعلنت بدء جلسة التّقرير النّهائيّ، بدأت سمفونيّة بيتهوفن الثّالثة، انطفأت الأضواء ولم يبقَ سوىٰ ضوء مكتبي وسجائري، وبين تحليل لما سمعت وما كانت من تصرّفات وبين الاختلاف الذي أحدثه وجود ميرا قرّرت أخيراً الافصاح بأنّي أحبّها، كيف سيكون ذلك ؟ سأقول لنايا وهي ستتولّىٰ الباقي، وفعلاً خلال الطّريق قلت لها أنّي أشعر وكأنّ في داخلي حبّـًا لميرا، قالت حقّـًا !؟ قلت: أجل، لكن

لا أعلم إن كنت سأخبرها أنا بذلك، قالت: لا عليك أنت سأخبرها أنا في مقصف الكليّة.

كنت أقف عند الباب حين قفزت عندما سمعت ذاك الخبر وكأنها امتلكت الدّنيا و ما فيها لمعت عيناها واحمرّ خداها و ازداد الجمال فيها جمالاً.

بدأ الحبّ بيننا وبدأت كلمات الغزل تتطاير في رسائلنا، والضّحكات ملأت أيّامنا، كنّا نقضي كلّ الأوقات سويّا وحتّىٰ المشاريع التي تطلب كنّا ننفّذها سويّا، كنت أنظر إلىٰ هذا الحبّ علىٰ أنّه المخلّص الذي سيزيل آلام الخذلان، ولكنّ ميرا لم تبقَ كما كانت حيث بدأ إهمالها بعد شهرين، أيعقل أنّي أخطأت في هذا الحبّ!

في البداية كنت أظنّ أنّي مخطأ بحقها ولكن عندما أفكّر مليـًا لا أجد أي خطأ إذا انتهت البداية الجميلة. عاتبتها مرّة وثلاث وفي كلّ مرّة كانت تقدّم أعذاراً مختلفة، ولحماقة حبّي لها كنت أصدّق ما تقوله، وفي آخر مرّة عاتبتها فتذمّرت كثيراً وذهبت.

لم أفهم ما الذي كان يحصل في تلك الأيّام، حاولت الوصول إليها ولكنّها كانت تهرب، وفي أحد الأيام كان لديّ بعض الأعمال بالقرب من سكنها، و في طريق العودة وجدتها أمام بيتها تنتظر فتح الباب، نظرت إليّ وكانت عيناها تقول لي: تعال يا عزيزي فقد اشتقت إليك. للحظة ضعفت ولكنّني قرّرت أن اتأنّىٰ لأيام أخريات.

وبعد يومين طلبت من نايا أن تذهب إليها وتفهم ما الذي حصل. أخذتها من بيتها وفي المكان ذاته التقيت بشيخ المسجد و بعد السّلام علمت أنّه أتىٰ لعقد قرانها، اليوم ستخطب ميرا وسيذهب كلّ

ذلك الشّعور المبهم إلىٰ مكبّ الذّكريات لا أعلم في أي صنف سيكون الذّكريات الحزينة أم السّعيدة ولكنّني أعلم بأنّه سيبقىٰ خالداً.

مرّ ما يقارب علىٰ الثّلاثة أشهر لكنّني لا أزال أقف ممثّلا اللّامبالاة، حتّىٰ أتت تلك اللّيلة التي جلست بها وحدي في عتمة الغرفة، لقد سقطت جثتي بهدوء عند الفجر.. الشّوق يحرقني منذ أسبوع أو ربّما أكثر أو ربّما كان منذ زمن بعيد، لكنّ التّكبّر والغرور الذي كنت أعيشه أمامهم كان يخفيه، لقد خمد كلّ شيء بداخلي الضّحكة و الحزن والأسىٰ والأمل إلّا حبّها والشّوق لها لم يطيعاني ولم يخمدا، لقد شبّت نيرانهما وأحرقتاني، لم أجد الوقت أو لم يسمح كبريائي بالبوح بهذا لأحد..

أنا أشتاق...

أشتاق لتلك الفتاة التي علىٰ مقربة من زفافها

هل أنا المذنب أم أنّها من أذنب!؟

لا أعلم لكنّني علىٰ وشك السّقوط يا عزيزتي، إنّ جثتي تسقط بهدوء دون أنين ولا صياح، تسقط دون كلام أو أي شيء، تسقط شوقاً فقط.

كنت أسلّي نفسي بأنّها ستعود في يوم قريب وأتمنّىٰ ذلك، لكن لم يكفي كلّ ذلك، ففي ليلة كنت أرتب بعض الأشياء في مكان عملي وإذ بأصوات الفرح بدأت تتعالىٰ، أصوات السّيّارات والأهازيج، ماذا كان هناك أتدرون ؟ إنه زفافها.

لا هروب الآن..

لقد دقّت ساعة الفراق وأعلن رسميّا مغادرتك..

من اليوم لن تكوني برفقتي في كلّ حين..

لن يكون هناك صباح يبدأ معك.

لن تكون ساعات الجنون لك ومعك.. لن تكون هناك ليالي سهر نتحدّث فيها ونضحك ونتشاجر...

لن نتبادل النّظرات عند التقائنا مصادفة في مكان ما.

او ربّما حدث والتقينا ولكن لن تكون النّظرات ذاتها أو الشّعور ذاته، أتذكرين تلك اللّحظة التي كدنا نصطدم فيها و المسافة بيننا لم تكن أكثر من موضع اصبع بل أقلّ من ذلك، عندها توقّف الزّمن وكانت عيناك ساحرتان أتذكرين؟

ولكن ما الفائدة الآن السّاعة دقّت. لا هروب الآن.

عدت إلىٰ البيت ودخلت إلىٰ غرفة أمي التي لم أجلس برفقتها منذ فترة، عانقت ثيابها ومكان نومها وسألتها ما الذي تريده منّي هذه الحياة، ما هدفها في كلّ تلك الخيانات و الآهات، ألست صغيراً يا أمّي علىٰ تحمّل كلّ هذا!؟ لماذا كلّما أردت رفع رأسي والنّظر إلىٰ نور الحياة أعطتني ضربة تعيدني لسيرتي الأولىٰ.

حاولت فهم الذي حصل وما ذاك الحبّ الذي كان، سألت نفسي مراراً وتكراراً لماذا أحبّتني ؟! أم أنّها كانت تمثّل الحبّ معي، هل كانت تلك الوسيلة لكسري وتمزيقي من جديد، لسحق كبريائي و إبقائي في قفص الموتىٰ علىٰ قيد الحياة!؟

ّاتصلت بنايا و سألتها السّؤال ذاته فأجابت: لا اعلم، صرخت بوجهها حينها، لقد كنت شريكتها لماذا تمثّلين الجهالة، كان الغضب قد تمكّن منّي وبكثرة ولم أعد قادراً علىٰ التحكم بأقوالي.

ظننتها وطنـًا
كانت جميلة هادئة كترنيمة عيد
دافئة بحديثها المقروء علىٰ قلبي، كآيات من مصحف النّبيّ محمد
بنعومة أناملها التي إذ فارقتني يومـًا ظننت نفسي قد وصلت اللّحد
ظننتها وطنـًا فأخلصت لها قلبي وكرّست لها عقلي وكتبت عنها مراراً دون زهد
كانت حبيبتي تشعرني بنشوة العائد إلىٰ الوطن والهارب من مكان بلا أحد
كانت حبيبتي تسمّىٰ وطن. صارت تسمّىٰ اللّؤم والكراهية والحقد
فأشبعت جدران غرفتي أنيني وكأنّني طفل لم يلاعبه أحد
تركتني وحدي أعاني غربة وأنا الموجود في ساحة مع الحشد
مات الوطن فيها أو مرض وكأنّه أصيب بالعين أو السّحر أو الحسد
ظننتها وطنـًا لكن بعد أن عرفتها علمت أنّي لم أزل في المهد

****

وبعد أن خرجت من الحداد كنت قد عدت إلىٰ ذاك الذي كان قبل أشهر صديق العزلة والوحدة قليل الكلام المبتعد عن جميع أجناس البشر، وعادت القوّة لي وكنت في كلّ ليلة أخطّط لأشياء كثيرة لفعلها لأثبت لذاتي ولجميع أولئك الذين قاموا بخذلي بأنّه لا شيء سيكسرني، لكن ما لم يعد علىٰ حاله هو نايا، كان غيابها كثير وفي كلّ مرّة كانت تحضر كانت بالحالة ذاتها متعبة كأنّها جدّة تسعينيّة، حاولت مراراً معرفة ما الذي حصل معها ولكنّها لم تجب بل كانت تكتفي بقول الحمد للّه، ما الذي أصابها هل انتقلت اللّعنة التي تلبسني إليها!؟ لا أتمنّىٰ هذا فهي رقيقة قد تجرحها نسمة رقيقة.

كنت أجلس عند الفجر خلف مكتبي أكتب بعض الكلمات واصفا ذاك الذي جرىٰ منذ أيام

نفاق يجول فوق أسقف الغرام
في المرّة الأولىٰ وقفت هادئة تضع يدها في جيبها
ببراءة عينيها التي من حولها تلتفّ النّجوم
بمبسمها الذي كشف حبّات ثلج في جوف الغصون
ونبرة صوتها المعزوف بناي وعود وقانون
بكلماتها الحسّاسة الرّقيقة برقّة خبز التّنّور
بطولها بخصرها بنهدها بشعرها باسمها المحبوب

❋❋❋❋

وسرعان ما بدأت هذه الجميلة تتحوّل من طفلة إلىٰ عسكر المغول

أخرجت يدها من جيبها هذا ما قد كان مزعوم

لكنّها أخرجت مخالب كالجوارح والنّمور

وزالت براءة عينيها وصارت كالذّئب النّاقم للوجود

وبدلاً من حبّات الثّلج أظهرت أنياب الشّرّ البغيض

وصوتها أصبح أجشّاً كآلة الحفر والطّاحون

وكلماتها أصبحت سيف تغرزه في الّظهر فتشلّ القلب وتعمي العيون

وبكلّ صفاتها بانت بثياب النّفاق التي كانت فيها بالبراءة تتستّر وتحاول الوصول

****

لم أنتهِ من تلك الكلمات حتّىٰ رنّ هاتفي ليخبرني بطعنة جديدة من يد الحياة، ذهبت باكيـاً إلىٰ أمّي أتذكرين التي قلت لك عنها أنّها الوحيدة التي اتقبّل وجودها في حياتي وأنّها لن تخذلني حتّىٰ مماتها، لقد صدقت يا أمّي نايا اليوم ستذهب إلىٰ قبرها وهي مخلصة لي، لقد رحلت نايا ورحل صوتها ورحلت ساعات التّسكّع في الشّوارع، لم تترك لي غير هذا العقد و ذاك الكمّ من الذّكريات، من أين آتي بذاتي بعد رحيلها!؟.

ذهبت إليها وألقيت علىٰ وجهها نظرة الوداع أتدرون لم يكن وجهها وجه الجدة التّسعينيّة كان وجهها يشعّ نوراً من بسمتها

المرسومة فيه، وكأنّ الرّاحة التي افتقدها قد سكنتها في درب منير، يا صديقتي ستكونين بخير هناك وستجدين أمّي التي ستحبّك وترعاك، لقد حدّثتها مراراً عنك، ستكونين ابنتها هناك لن تحزني. جررت حزني إلىٰ بيتي بقلب قد أُشبع بوجبات حزن فاخرة، وجلست أنتقم من السّجائر وأنظر إلىٰ الصّور الثّلاث الموجودة، أمّي ونايا رحلتا ولم يبقَ إلّا أنا، ترىٰ هل سأكون اللّاحق بعد زمن، ومرّت الأيّام كالحنظل في حنجرتي.

بالأمل.. و الصّبر.. والأحلام.. كنت أقاتل حتّىٰ أكمل نذري بأنّي قادر علىٰ المضي والوصول مهما كانت الثّغرات التي يحفرها واقعي والطّعنات، وفي يوم كنت أجلس في العتمة حتّىٰ جاء صوت من داخلي وقال أنّه واقعيّ

وبدأ الواقع اللّعين يسرق الوهم منّي
ويصفعني ويلطمني علىٰ خدي ويوقظني
ويقول هاك، استلّ سيف الزّمان وحاربني
وارجح بعقلك فإنّ الوغد كالحشرة عندي

❋❋❋❋

أرني من أنت وبالكلمات قد شوّهتني
وبالحلم سخرت بما عندي
حتّىٰ حسبتك أحد أساطير اليونان أو الرّومان أو الهندي

أيا راقدا علىٰ فراشك في كلّ ليلة في الحلم ناسياً ظلمي
قم، تعال إلىٰ المعركة وحاربني
ليعلم الجمع من أنا ومن خصمي

❋❋❋❋

أيا واقعي المجنون كفاك ثرثرة أثرت لي روعي
ما انت إلا كحجر مر أمام فكري
فالضّعف في ثناياك من شدّة صبري
والخوف عشّش في روحك من عزمي
لن آخذ السّيف منك لكنّني
سأقضي عليك بالحكم التي عندي.

❋❋❋❋

[الفصل5] أيلول والوهم.

أحبّك...

لطالما أخطأت بقول هذه الكلمة أنا وأنت والجميع...

في كلّ ليلة أضع رأسي فيه علىٰ وسادتي أفكّر كم كنت غبيّاً عندما قلتها، بأيّ وعي وبأيّ تفكير قلتها!؟ انا لا افهم لماذا، ربّما جنون او تسرع وعدم صبر، لقد كان علينا التّفكير جيدا قبل البوح بهذه الكلمة، أن نختار جيّداً، أن نفكّر في الأشياء الجيّدة والسّيئة فيه، والأسواء هل نحن علىٰ استعداد لتحمّل هذه الأشياء، أيمكنني تحمّل الغيرة والتّقيّد بتصرفاتي، هل أنا علىٰ استعداد لخسارة صديقة ترفض حبّي وتكون هذه الكلمة هي اللّعنة، هل أنا علىٰ استعداد لتحمّل صدمة دخول جحيم العادات والزّواج مبكّراً ؟

من ذاك الذي لم يعرف عنكِ سوىٰ اسمك وسمعتك وبعض أقاربك، لم يعرف ماذا تحبّين وكيف تحبّين الأشياء، هل أنا علىٰ استعداد لتحمّل هذه الأشياء وغيرها..؟

هل هذا تعقيد لمفهوم الحبّ أم أنه الخوف من قفص الحبّ أم وعي لا أعلم.

لكن ما أعلمه الآن أنّني لست علىٰ استعداد لدخول عالم العشّاق، ربّما تعوّدت علىٰ هذا الشّيء، ربّما صار دخول الحبّ في حياتي مستبعد وشبه مستحيل. اللّعنة للأفكار التي تأخذني الىٰ عالم معقّد...

مرّت الأيّام وكأنّها سهم جليد، كناّ قد بدأنا أوّل يوم في الحياة الجامعيّة منذ أيّام قليلة في حرم هذه الجامعة، من هذا الباب دخلت ونايا وهنا كنّا نجلس وهنا كان آخر لقاء، هذه الجامعة التي جمعتنا بأناس ربّما هم النّموذج الواعي في المجتمع الشّبابيّ الجديد، واليوم قبل بضع ساعات كنّا نقف بسترة التّخرّج أمام أهلهم، أمّا أنا فلم أعد علىٰ تواصل معهم منذ سنتين أو أكثر، كانت الفرحة تشعّ من وجههم جميعـًا، الفرحة التي لا يمكن وصفها، فرحة النّجاح.. فرحة الفخر. فرحة اجتياز امتحان آخر في الحياة.

والآن علىٰ كلّ منّا أن يبدأ حياته العمليّة الجديدة، أي أنّنا دخلنا في طريق جديد يجب تجاوزه للوصول إلىٰ تلك السّاحة التي تسمّىٰ المستقبل النّاجح، عند قولنا بأنّ كلّ مناّ أنّه سيدخل بطريق الحياة العمليّة الجديد لا نعني أنّ كلّ منّا سيكون معزول عن الآخر.

أيلول شهر الهدوء والحبّ من اكثر الأشهر المحبّبة لديّ، وتحديداً في اليوم التّاسع منه حيث قرّرنا الخروج بأوّل رحلة من بعد التّخرّج إلىٰ قرية أحد الأصدقاء، إحدىٰ القرىٰ الشبيهة بالجنّة والتي تقع في محافظة حماة، أعشق كلّ تلك التّفاصيل فيها، هناك المنزل المتواضع وإطلالته، الهدوء الذي يسمع مع هفيف الرّياح وتمايل أغصان الأشجار الكثيفة والسّماء التي تظهر بلونها الحقيقيّ دون أن تطغىٰ أنوار جحيم المدينة علىٰ جمالها، والنّجوم والقمر و الكثير من

التّفاصيل الرّائحة الخاصّة بها، مياها، والالوان الممتزجة من طبيعتها وأهلها وطيبتهم وكلّ جزء منها.

أمضينا وقتاً لا ينسىٰ أبداً في اليوم الأوّل خرجنا بعد تناول الإفطار وأحضرنا ما نحتاج إليه إلىٰ تلك الغابة المليئة بالأشجار الكثيفة، وبدأنا بالمشي وكلّ منّا كان يمارس هوايته؛ يتأمّل أو يصوّر أو يلتقط بعض الأزهار البريّة ويراقب الطّيور، عندما بدأ المغيب كناّ قد جهّزنا قطع الحطب ونصب كلّ منّا خيمته، وبدأنا الإعداد لحفلة الشّواء مع الكثير من الضّحكات والمتعالية في الأرجاء.

جلسنا بعد ذلك نتبادل أطراف الأحاديث، ولم يلبث الوقت أن يمرّ منه القليل حتّىٰ بدأ الاصدقاء يتثاءبون، واحد تلو الآخر ينسحبون إلىٰ أكياس نومهم.

لم يبقَ سواي بجانب النّار أسكب كأساً من الشّاي، أحدّق بكلّ تلك النّجوم اللّامعة مستمتعًا بالهدوء، أخرجت تلك المذكّرة من حقيبتي والقلم خاصتي و وضعتهم جانبي وبدأت سلسلة الأفكار تعرض في ذاكرتي، للحظة توقفت السّلسلة بصورة فتاة كانت تظهر لي في لهب النّار أتعرفون من هذه الفتاة؟ إنّها نايا، صاحبة الوجه الجميل والبسمة المعدية رفيقة الدّرب والبداية، كنت أتمنّىٰ لو أنّها مازالت معي تعزّيني في هذه الحياة الفارهة إلّا أنّ ذاك الشّبح الذي يدعىٰ الموت ظهر لها من بين تلك الأشجار ليخطفها من بيننا دون شفقة.

وكتبت إليها :

- سلام إليك حيث كنت
سلام معجون برائحة هذا المساء
سلام معطر برائحة جدران الأقصىٰ
سلام معطر برائحة ياسمين الشّام
سلام مروي بماء زمزم
سلا م علىٰ روح طاهرة فارقت جسدك
سلام إليك في كلّ يوم ومن كلّ مكان
سلام من نواة قلبي
سلام من أجمل أيّامي وأسوأها

أغلقت تلك المذكّرة وقد حبست الآه خلف قضبان التّماسك، شردت لبعض من الوقت مع ذاك الهدوء وسعيت إلىٰ كيس نومي محاولاً النّوم، وكأيّ يوم منذ أعوام ذلك التّفكير والأرق يمنعني.

- إلىٰ ذلك الأرق الملازم لحظاتي في كلّ حين، لماذا أتيت؟ هل جئت لتأكل ذاكرتي أم جسدي أم حاضري؟.

استيقظنا في الصّباح التّالي علىٰ صوت صياح إحدىٰ الصّديقات بعد أن تخيّلت أنّ إحدىٰ تلك الأغصان التي بين الأوراق هي ثعبان، حزمنا حقائبنا و تجهّزنا للرّحيل، عدنا إلىٰ المنزل المطلّ علىٰ ذاك

المنظر السّاحر، و مثل أيّ يوم نقضيه مع الأصدقاء للحظات، نضحك ونمازح مرّة ندخل في نقاش العمر وأخرىٰ في نقاش الواقع وتحليلات وتفسيرات وفلسفات لا تنتهي، حقيقة لقد مضىٰ اليوم دون أن نشعر به.

عند الثّانية عشرة خرجت إلىٰ الشّرفة و أشعلت سيجارتي، كانت ليلة باردة وقد جمعت السّماء كل رحّالتها من الغيوم وكأنّها ستمطر، ردّدت لمرّات: هيّا أمطري.. أمطري. أمطري لعلّ الخير ينزل معها لي، فجأة وقبل أن أنهي كلمتي واذ بضوء من شرفة قريبة بالاتجاه الغربي و فتاة في العشرين من عمرها تقريباً تخرج إلىٰ تلك الشّرفة بخطوات هادئة وواثقة وكأنّها إحدىٰ الحوريّات أو عارضات الأزياء، وتلك النّسمات الرّقيقة زادت سحرها بعد أن داعبت خصلات شعرها ذات اللّمعة الخلّابة، ومع شرود عينيها بسماء الدّنيا كطفلة تترقّب أن يسقط الشّهاب وتتمنّىٰ أن تستيقظ لتجد أن أباها قد اشترىٰ لها دمية جديدة.

شردت مع شرودها وإذ بالسّماء تلقي نعمتها علينا برقّة فتسقط علىٰ خديها المحمرّين كحبّات التّفّاح.

كانت تلك اللّحظات وكأنّها أحد أبرز اللّقطات الاحترافيّة من الرّومنسيّة العالميّة، كنت سارحاً فيها لدرجة أنّني لم أشعر أنّ كلّ ثيابي وأوراقي قد شربت من مياه الأمطار إلّا بعد دخول تلك الأميرة إلىٰ قصرها وهي تركض لتختبئ من الأمطار، سارعت بالدّخول إلّا أنّ قلبي كان يقول ابقَ لعلّك تحظىٰ بنظرات أكثر لكنّها لم تعد تظهر في ذلك الوسط.

بقيت هذه الحادثة الأكثر حياة في ذاكرتي و حتّىٰ لحظتي هذه كأنّه قد حدث قبل دخولي من ذلك الباب.

أتممنا يومين آخرين هناك وفي كلّ ليلة أخرج وانتظر لعلي ألقاها مرّة أخرىٰ، كنت أراقب كلّ التّفاصيل المحيطة حتّىٰ تلك النّجمات المتناثرة وأهذي بكلمة: أمطري. أمطري.

لعلّ تلك الحادثة تعاد من جديد أو أنّ تلك الأميرة تظهر لأعرف من هي ومن تكون، لكنّها لم تعاد ولم تظهر الأميرة.

وفي اليوم الأخير لنا هناك كانت ذاكرتي تعيد. وتعيد. ذاك المشهد وأنا أنتظر لعلّي ألقاها، وأفكّر كيف ومتىٰ سألقاها وأؤكّد لنفسي بأنّه لابدّ أن ألقاها هذه اللّيلة وإلّا قد تبقىٰ حسرة في قلبي إلىٰ موتي. ذهب الجميع إلىٰ النّوم لأنّ رحلتنا إلىٰ بيوتنا ستكون في الصّباح الباكر غدا، خرجت وجلست أتأمل وأنتظر و أتساءل

- من هي؟، ومن تكون؟ ومن أين أتت؟ وكيف ذهبت وتركتني في كلّ هذه الحيرة؟

لا تزال السّاعة الحادية عشرة ولكن ما هذا المنظر الذي أمامي هذه السّيجارة صاحبة الرّقم التّاسع عشرة وقد ثقل رأسي بعض الشّي من التّحديق والتّفكير، تجاوزت السّاعة الآن الواحدة بعد منتصف اللّيل ولم يخرج أحد من ذلك الفانوس السّحريّ، بدأ الشّكّ يتسلّل في أفكاري، أيعقل أنّها لم تكن حقيقة؟، أهو مرض الوهم قد أصابني ولم يكن ذلك إلّا وهم تخيلته من كثرة الأحلام والأماني؟.

لقد سيطرت كلّ تلك التّساؤلات حتّىٰ الصّباح ولم أستطع الإجابة حتّىٰ علىٰ سؤال واحد منها، وبعد أن ضربت أشعّة شمس الصّباح علىٰ عينيّ أيقنت أنّها أوهام، أو ربّما حاولت اقناع نفسي بذلك كي تكفّ عن التّساؤلات.

حان وقت الرّحيل، دخلت إلىٰ غرفتي وبدأت أجمع أشيائي، ها نحن نغادر وألقي آخر نظرة علىٰ مسرح تلك الحادثة، بدأ الأصدقاء بالغناء والتّصفيق والفرح والمشاحنة، وأخيراً وصلنا إلىٰ دمشق أي عدنا إلىٰ رائحة النّارنج المنبعث من البيوت القديمة والياسمين المتسلّق علىٰ كلّ الجدران، و صوت بائع التّماري وغزل البنات ورائحة الخبز والبيتزا والفلافل وكلّ تلك الأطعمة الّشهيّة، الازدحام في سوق الحمديّة وعند بوظة بكداش، لقد عدنا إلىٰ المكان الذي عشنا فيه كلّ ذكريات الجيّدة والسّيّئة والمكان الذي سنصنع فيه الذّكريات من جديد.

ودعت أصدقائي وذهبت متخبّطا بذاتي إلىٰ منزلي، دخلت إليه والشّوق لكلّ تفاصيله كبير، رميت أغراضي في غرفتي دخلت لآخذ حمّاماً سريعاً، وبعد أن خرجت استلقيت علىٰ سريري لأغفو في تلك اللّحظة لدقائق وفيه رأيت ذلك الحلم كانت بعد أن رأيت المشهد ذاته عندما التقينا نزلت من شرفتها وحبّات المطر تقبّل كلّ تفاصيلها وتتّجه نحوي، وقفت أمامي ونظرت إليّ بنظرة ساحرة و قالت: لقد التقيت بي فلماذا ذهبت ألن تعود؟ قلت: ولكنّني لم أذهب أنت من ذهبت، ضحكت ثم قالت: لم أذهب أنا موجودة لكن لم يحن الوقت

بعد لا تذهب أنت أيضا سنلتقي، ثم اختفت فجأة وبدأت التفت حول نفسي وأصيح من أنت من أنت؟ أفقت من نومي و ذهبت لألقىٰ بنفسي في غرفتي والشّرفة خاصّتي حولها الأبنية وأصوات السّيّارات والمارة والباعة المتجوّلين،

توجّهت إلىٰ مكتبي وأخذت قلمي لأكتب لها بعض من شعري وكتبت:

أيا قطعة منّي في السّبيل تائهة
يا قهوة الصّباح و يا وردتي النّائمة
يا حلوتي وأميرتي أيا سكّرة
هلّا أتيت و أكملتني
وزرعتي في تراب قلبي وردة
بعطر أنفاسك وبصوتك الرّنان
تتجمّل وترقص وتفرح أيا سوسنة

❊❊❊❊

أيا قطعة منّي بزحام الحياة عالقة
متىٰ الميعاد والقدر
و متىٰ يكتمل القمر
وتتعانق الأرواح تحت المطر

❊❊❊❊

أيا قطعة منّي بهموم الحياة غائرة
تعالي لحضني لعلّي انتزع منك الهمّ
أو أنّني بهمّك أصبح شاغلا
تعالي وعانقيني واصرخي
تعالي و أعيدي للشّام رائحة الياسمين وأفرحي

❊❊❊❊

أيا قطعة منّي على الأرض متنقّلة
هلّا أجبتني متى الميعاد يا ترى
متى اللّقاء والعناق متى الحبّ والوئام
متى تنامين على كتفي مثل الحمام.

❊❊❊❊

أغلقت دفتري وذهبت إلى أمّي أروي لها ما حدث ثمّ ودّعتها وأعددت قهوتي وجلست أنتظر وأتذكّر و أتساءل أهو الحلم. أم الوهم.. أم أنّه الخيال؟

ترى ما الذي نعرفه عن هذه الكلمات؟! ربّما كانت هذه الكلمات تحمل معانٍ متقاربة أو ربّما كان لها نفس الأسباب، فالوهم تشوّه حسّي يصبح من يصاب فيه منّا يرى أشياء غير موجودة ولن توجد، أمّا الخيال فهو أن نغوص في أحلامنا حتّى نصل إلى أحلام ليس من الممكن تحقيقها، أمّا الحلم فنحن

نحلم بأشياء لتغيير واقعنا أو لزيادة نجاحنا، أي أنّنا نرىٰ أشياء نسعىٰ إليها وتكون معجونة بالأمل، لذلك يجب استبعاد الوهم والخيال وفي تلك اللّحظة قد صدر قرار بإقالتهم من عملهم في حياتي وإن كان عملهم قليل.

[الفصل٦] كرفان

اليوم أتمم الشّهرين في عملي الذي بدأته بعد تلك الرّحلة، لا يزال هناك بعض التشويش في الأفكار ممّا حدث لكنّني تعايشت معه، لقد انتهيت اليوم من جميع الأعمال المسؤول عنها ولديّ إجازة لمدّة أسبوع، عدت إلىٰ بيتي وقمت بالأعمال الاعتياديّة من استحمام وغداء..، جلست أمام التّلفاز أفكّر في نفسي عمّا يمكن فعله في هذه العطلة، يجب أن يكون شيئًا جديداً للتّغيير، وخطر لي أن أتجوّل بين المحافظات، اتّصلت بصديقي بشير و سألته إن كان يعرف أحداً يؤجّر بيتًا متنقّلاً "كرفان" قال أنّه سيسعىٰ ليجد وإن وجد سيخبرني، ولم يغب عنّي ساعة حتّىٰ أخبرني أنّه وجد وسآخذها في السّابعة من صباح الغد شكرته كثيراً، وخلدت إلىٰ النّوم والحماس في داخلي.

جهّزت في الصّباح كلّ احتياجاتي وذهبت لأخذ الكرفان، وضعت به كلّ ما يمكن احتياجه وهو الآن جاهز لأن يسكن، وتوجّهت إلىٰ طريق حمص. لطالما أردت امتلاك مثل هذه السّيّارة والتّجوّل حول كلّ العالم، و زيارة الغابات والمدن الكبيرة ورؤية حياة كافةّ النّاس والاختلافات التي يعيشونها بالرّغم من أنّهم علىٰ نفس القطعة من المجرّة.

توقفت بجانب أحد الحدائق لآخذ قسطًا من الرّاحة، دخلت الحديقة واقتربت من أحد المقاعد لأجلس، وإذ بطفل يبدو أنّه لم يتجاوز الثّانية عشرة من عمره، كانت ثيابه متّسخة، يحمل بيده كوب شاي وبعينيه شيء من التّعب جلس بجانبي وأخرج علبة سجائر،

ضحكت من داخلي وخطر لي قول والدتي عندما كانت تشاهد هؤلاء " شوف الولاد كلّ واحد سيجارته أطول منه" بدا لي أنّه ليس من الأطفال الذين يتشبّهون بالزّعران، أقبل علىٰ ضيافتي علىٰ الرّغم من أنّها الأخيرة لديه، أخرجت علبة السّجائر خاصّتي وأشعلت واحدة وأنا أنظر إليه بطرف عيني كي لا يلاحظ، كانت تصرّفاته تصرّفات شخص يافع حتّىٰ أنّه كان يدخّن وكأنّه يريد الانتقام من نفسه، بعد قليل نام الطّفل وهو علىٰ المقعد، ربّما التعب يرهق بدنه الصّغير، سألت نفسي ما الذي أوصله إلىٰ هذه الحالة؟.

أين عدالة هذه الحياة... هل رقدت؟ تذكّرت قول أحد الأصدقاء والذي كان يعمل نادلاً في أحد المطاعم علىٰ الرّغم من أنّه يحمل شهادة معهد مصرفيّ كان يقول :

"لا عدالة في هذه الحياة أيعقل أن ندرس كلّ تلك السّنين لنخدم أحد مالكي المال والذي ربّما لا يعرف القراءة ولا الكتابة" لم يكن وحده يعيش مثل هذه المواقف فكان هناك صديقي خرّيج كليّة الاقتصاد وطالب الهندسة المدنيّة وغيرهم الكثير، أين هي العدالة أمام هذا الطّفل أين هي أمام هذا الشّابّ وتلك الفتاة أين هي؟.

دخلت إلىٰ أحد المناطق الخضراء في حمص واخترت نقطة علىٰ الطّريق مليئة بالأشجار، أشعلت ناراً وأخرجت كرسيّ الطّيّ ومع أغاني أمّ كلثوم، كم أنّها حياة جميلة! العيش في الطّبيعة والتّنقّل

باستمرار وكأنّك طائر بجناحين لا يستطيع إيقافك شيء عن التّحليق إلّا الموت، وخلال جلستي بدأ العقل يمتطي الأسئلة،

– هل نستطيع العيش طول الحياة هكذا؟

– متىٰ سيكون لقائك مع تلك التي كنت تحلم بها طول الوقت وتصفها في سطور مذكّراتك؟

– ملاك المطر التي التقيت بها في الرّحلة الماضية، أهي حقيقة أم وهم؟

و الكثير منها، لم يرح لسانه عن السّؤال إلىٰ أن استسلمت للنّوم.

استيقظت في الصّباح الباكر، خرجت للمشي لنصف ساعة بين الأشجار حتّىٰ لا يصيبني الخمول أثناء الانطلاق إلىٰ حماة، كان الفرح يملئ قوقعة صدري، فهي أيّام من الحلم فيها لحظات من راحة البال والاسترخاء، دخلت إلىٰ المدينة أوشك الوقود علىٰ النّفاذ توقّفت قبل أحد التّقاطعات بخمسين متراً، توجّهت إلىٰ أحد الدّكاكين لشراء علب سجائر والسّؤال عن موقع محطّة الوقود، وأثناء خروجي استوقفني مشهد ربّما مضحك وربّما مبكي، كان المشهد عاديّاً للوهلة الأولىٰ و من الممكن أن تراه في أيّ مكان، فتاة صغيرة ربّما كانت متسوّلة وربّما تمتهن التّسوّل تركض وراء رجل أنيق الثّياب يبدو أنّه من أصحاب الأموال وتردد الفتاة "اللّه يوفقك يا عمو.. من مال اللّه. اللّه يخليك"

لا يزال الموقف عاديّ وفجأة غضب ذلك الرّجل و التفت إليها ليصفعها و ينهرها بصوت مرتفع، اختطف لون الفتاة وهربت منه وجلست عند زاوية أحد المحلّات وبدأت بالبكاء بينما تابع ذاك الجشع طريقه، هذا واحد من أولئك الذين حدّثني عنهم إحدىٰ المرّات العجوز الذي يقطن بجانب موقف السّيّارات في حيّنا "هناك يا بنيّ الكثير من أصحاب الأموال الذين يسرفون أموالهم في الملاهي اللّيليّة علىٰ أشياء سخيفة كتحية لصديقهم أو لإسعاد عاهرة لكن إذا جاء إليهم مسكين ليطلب بعضا من حقوقه في أموالهم حرموه وشتموه.

أكملت طريقي إلىٰ محطّة الوقود و التي كان مقابلها جزّار، أخذت بعض من اللّحمة وخرجت من ضجّة المدينة ورؤية المواقف المزعجة إلىٰ إحدىٰ الغابات، أغلقت الكرفان بعد أن أخذت حقيبة التّخييم ودخلت الغابة حتّىٰ وجدت نبعًا صغيراً و نصبت خيمتي بجانبها، بدأت الشّمس تغيب وبدأ المنظر يسحرني أكثر وأكثر كنت أشعر بالحريّة بين تلك الأشجار و رائحة اللّحم وهي تشوىٰ علىٰ الحطب تتسرّب إلي أنفي و هي من أكثر الرّوائح التي أحبّها، بعد الانتهاء من العشاء جلست اتأمّل وأصغي لصوت هدير الماء، أخذت دفتري وقلمي

وكتبت في وحدتي..

- لقد اعتدنا علىٰ هذا...

لقد أصبحت وحدة الرّوح لدينا الجزء الأساسيّ في شخصيّتنا...

أصبح وجود شخص آخر يشاركنا تفاصيلنا شيء صعب. أو ربّما مستحيل.. ربّما أصابنا سهم الأنانيّة. أو ربّما تملّكنا الخوف من مشاركة أرواحنا مع أحدهم..

لم يعد يهم.. اعتدنا علىٰ هذا.

في الصّباح التّالي تفقّدت الكرفان لأتأكّد إن كان هنالك نقص، ثمّ قرأت خارطة الطّريق وتوجّهت إلىٰ جبلة التّابعة لمحافظة اللّاذقيّة، كانت المناظر في الطّريق خلّابة لدرجة أنّك تظنّ نفسك قد صعدت إلىٰ الجنّة أو أنّك دخلت إحدىٰ المناطق المفقودة تحت البحار، وصلت إلىٰ ساحل المدينة ودخلت إلىٰ أحد مطاعمها، وبعدها كان لابدّ من المشي علىٰ الشّاطئ وتذوّق طعم الذّرة بالجبنة التي لا تنسىٰ، و في المساء أوقفت الكّرفان في أقرب نقطة إلىٰ الشّاطئ وأخذت كأساً من الشّاي وكرسيّ و دفتري وجلست أتأمّل بمياه البحر التي ألهمتني الكثير من الكلمات، منها كلمات كتبتها في شوقي لملاك المطر التي عاشت منذ تلك الرّحلة في أحلامي :

أيا أميرةً. في الذّهنِ هي الفكر
وفي القلب ريحان وأزهار
ارأفي بحال النّابض الخفّاق
ينفي النّوم من عيني... لأنّه مشتاق
ويدعو طول اللّيل ويخشع للقياك
خراب في الرّوح صار بعد فرقاك
والأمل فيها أنّي يومـاً سألقاكِ

****

شاخت لمسات القلب وغلظت الكلمات
ومات الكلام الجميل.، وهدأت في القلب الهتافات
والحلم بات معروفًا يصوّر الماضي والذّكريات
تزورني في كلّ ليلة حمامات
فأشكو لها وأطربها وأبكي واصرخ بالآهات
أيا ساكنة في القلب كيف العين تلقاك

❋❋❋❋

القلب جفّت دمعته من بعد فرقاك
وتلعثمت الرّوح وثقلت علىٰ لسانها الكلمات
فالضّحكة المرسومة علىٰ وجهك أجمل اللّوحات
والغمازّة المحفورة علىٰ خدك كأنّها بجمالها تنافس الجنّات
أيا مالكة للقلب إنّي أهواك وأتمنّىٰ في كلّ لحظة لقياك.

❋❋❋❋

في الصّباح التّالي لم يكن من المنطق أن أغادر جبلة دون التّخييم في أحد قراها الجميلة والمعروفة، وبعد إجراء القرعة اخترت قرية وادي القلع إحدىٰ أجمل القرىٰ هناك بشلّالاتها التي تشبه سلاسل الماس والصّوت الذي يضجّ بهدوء المكان والمغارات القديمة، وبعد السّباحة في ذاك المكان بدأت البحث عن مكان للتّخييم وقضاء اللّيل هناك، وبينما أنا أبحث تعثّرت بين الأشجار وجرحت ساقي، وبعد تضميدها كان الغروب قد حان، بدأت التّقدّم وفجأة ظهرت مجموعة

من الشّباب، طلبت السّماح بأن أقيم بالقرب منهم لكنّهم رفضوا.، وطلبوا الانضمام لهم وقضاء اللّيلة معهم، لقد كانت ليلة جنونيّة؛ لعبنا الورق وغنّينا علىٰ الرّغم من أنّ أصواتنا شنيعة لعبنا الألعاب، سألتهم عن سبب تواجدهم هنا فأجاب أحدهم: نحن مجموعة رحّالة يا صديقي نتجوّل في الكثير من الغابات والمناطق الطّبيعيّة، نلتقط الصّور ونكتشف الأماكن لكنّ الشّيء الوحيد الذي لا نستطيع فعله يا صديقي أن نقيم في المدينة لأكثر من يومين، فضجيجه لا يناسبنا والتّفكير الذي يحمله الذين هناك مصاب بوباء التّحضّر، وعملهم هو التّملّك والبقاء، أمّا الفقراء منهم فلهم اللّه.

ربّما كان محقّاً بكلّ كلمة يقولها لدرجة كبيرة، فسألتهم عن الحبّ ألم يزركم ؟

فقالوا ربّما ما لدينا هنا أفضل من البحث عن الحبّ الصّادق في أكوام النّفاق، لم أتفوّه بكلمة فأنا من يعيش حروب البحث.

ذهبنا للنّوم وبعدها رأيت ما كنت اتمنّاه إنّها ملاك المطر قد جاءت من بين هذه الأشجار متعبة لكنّها جميلة، فالكرز في شفتيها اللّتين أشعلتا حرب المجوس وعيناها بتلك القطعتين الماسيّتين بنيتيّ اللّون، و خدّيها المتورّدين كالجوريّ، بدأت تتبسم و بابتسامتها يزهر قلبي شيئاً فشيئاً، اقتربت متمايلة حتّىٰ أصبح بيننا نقلة قدم، مددت يدي لألمس وجنتيها. و فجأة اختفت ملاك المطر لاكتشف أنّ كلّ ما رأيته كان حلماً ولا شيء يأتي من بين الأشجار سوىٰ الرّيح وأوراق الشّجر، لم أستطع النّوم بعدها وجلست منتظراً الصّباح.

« أنتِ.؟ أيّ شيءٍ أنتِ..؟ كيف تمكّنت من التّجذّر بداخلي...؟ من أنتِ حتّىٰ أصبحت الحياة و الأحلام؟ معقودة بك يا مجهولتي..؟ كيف تمكّنت من غزو السّماء. ؟كيف سرقت الجمال من كلمات الشّعراء...؟ كيف زيّنت الحاضر بلا نرجس ولا اقحوان بلا أوراق أغصان..؟ كيف استطعت فعل كلّ هذا لي...؟ من أنتِ...؟»

كانت المجموعة ستكمل طريقها في الغابة وتتوجّه الىٰ المناطق الأخرىٰ سيراً علىٰ الأقدام، و قد كان من الجميل أن أرافقهم لكن ليس لديّ سوىٰ يومين حتّىٰ أعود، قرّرت التّوجّه لزيارة حلب واختيار مكان أخر كآخر وجهة لي في هذه العطلة، شكرت الأصدقاء وتوجّهت إلىٰ الكرفان، كان التّعب مسيطراً علىٰ جسدي فلم أنم في هذه اللّيلة، بدأت الطّريق ولكن بعد القيادة لمدّة تغلّب النّعاس عليّ وقرّرت البقاء والنّوم لبعض الوقت.

لم أستيقظ حتّىٰ السّاعة الثّامنة لقد أهدرت يوماً من رحلتي ولن أتمكّن من تغير وجهتي بعد حلب إلّا إلىٰ دمشق، أخذت هاتفي لأمشي بعضا من الوقت، ثمّ جهّزت قهوتي وأخرجت كرسيّ الخاصّ بي وأمام الكرفان قضيت اللّيلة بقراءة بعض أشعار نزار قبّاني وشرب القهوة والتّدخين، لم تكن هذه اللّيلة مريحة بذلك القدر ففي كلّ كلمة غزل من أشعار نزار كانت ستارة أمام عيني تفتح وتخرج ملاك المطر مع لحن النّسيم و ضوء القمر والنّجوم.

ماذا أفعل هل من أحد يجيبني؟

و للنّسيان أغلقت الكتاب وحاولت كتابة بعض الأشياء لكن حتّىٰ هذا لم ينفع لا تزال البطلة موجودة في النّصّ، كلّ كلمة غامضة تعود لها. كلّ أمل. كلّ غزل.. كلّ ضحكات السّهر... وكلّ أيّامي هي لها.

لا بدّ الآن من إكمال الطّريق إلىٰ حلب الشّهباء، دخلت المدينة مندهشاً من كلّ تلك التّفاصيل الجميلة فيها، البيوت القديمة والآثار وتلك القلعة المتربّعة فوق التّلّة لا بدّ من زيارتها الآن، لقد قيل بأنّها من أجمل المعالم الاثريّة، بدأت بزيارة معالمها واحدة تلو الأخرىٰ، من قصر المجد ثمّ إلىٰ القصر السّلطانيّ ثمّ إلىٰ تلك الممرّات التي تنام تحت الأرض، لقد فعلت الصّواب بكوني لم أفوّت زيارة هذه المدينة في هذه الرّحلة، أثناء الخروج ذهبت للتّسكّع بين أزقّة المدينة القديمة، دخلت زقاقاً جانبيّاً وإذ بي أصطدم بشابّ في سنّ السّابعة عشرة فسقط علىٰ الأرض، وبدأ بشتم الرّبّ والدّين، فقلت له: ما بك يا فتىٰ لم يحدث لك شيء سوىٰ أنّ ثيابك عليها بعض التّراب لماذا تشتم الّربّ فما علاقته، تذمّر قليلاً ثمّ رحل، لم يكن الشّاب الوحيد الذي يتلفّظ بذاك الكلام، في المساء توقّفت علىٰ الطّريق المتّجهة إلىٰ دمشق، جلست أتأمّل ولا يزال الغضب من ذلك الشّاب داخلي، ماذا أصابه! بعض من التّراب ونحن قد خلقنا من تراب وعائدون إلىٰ التّراب.

وعندها خطر لي سؤال عجيب نحن دائمـاً نقـول تلـك الجملـة ولكن ما المضمون الذي تحتويه " نحن من تراب وإلىٰ تـراب"، ربّمـا كانت هذه الحقيقة نعم ولكن لابد من أنّها ناقصة، لقد خلقت أجسادنا من تراب نعم ولكن ما معنىٰ الجسد من دون روح أجسادنا مـن تـراب وإلىٰ تراب لكن أرواحنا من ماذا ربّما هذا ما تميّز به الإنسان دون باقي الخلق، إنّنا من روح اللّه فقد ورد في القرآن الكريم" ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه" صـدق اللّـه العظيم، لا يمكننا قول هـذا بمعنـىٰ الشّـموليّة ومن قصد في قوله الشّموليّة فهو شخص لا يحوي علىٰ شيء في جوفـه أو أنّه أصبح جسد يتحرك مثل آلات هذا الزّمان، لا أعلم بعد إن كـان هذا الكلام حقيقة ربّما كان خاطئاً وربّما صحيحاً وربّما هي أفكار تائهة في أفقي.

في الّصباح بدأت رحلة العـودة إلىٰ الحيـاة المستقرّة وفي روحـي شـيء مـن التّـذمّر لمفارقـة هـذه الأيّـام الجميلـة والشّـعور بالحريّـة وفي نفس الوقت أمل لعـلّ الحلـم الـذي أنتظـره منـذ زمـن يكـون بانتظـاري الآن، لا يمكنني التّراجع يجب عليّ العودة فلا أحد فينا يعلم أين قدره ونصيبه ولا نعرف أي شيء حتّىٰ يظهره اللّه.

[الفصل ٧] مانيسا

كنت عائداً إلى المنزل إلّا أنّ الجوع استوقفني أمام أحد المطاعم، جلست أنتظر وجبتي ريثما تجهز، و إذ بهاتفي يرنّ، إنّه بشير، يتّصل ليدعوني للاحتفال بعيد رأس السّنة في قريته، سنخرج منذ الغد أنا وبشير وعائلته وأصدقائنا الآخرين ونقضي بعض الوقت سويّاً.

دخلت المنزل وبدّلت ثيابي وجلست أمام المكتب لكنّ طيفاً قد أتى إليّ دون سابق إنذار، خرجت إلى الشّرفة المطلّة على الحديقة لمدّة ربع ساعة أو أكثر أفكر فيما لو كانت ملاك المطر موجودة في رحلة الغد أيضاً أم أنّ المصادفة لن تكون حليفتي هذه المرّة.

في الصّباح التّالي كانت أمطار كانون تهطل، ارتديت معطفي وأخذت حقيبتي وتوجّهت إلى نقطة الالتقاء، كان الموعد في التّاسعة و لدينا ثلاث سيّارات، لم يفتقد الطّريق حسّ الفكاهة والضّحكات، وبيننا بشير و سارة وعلي وحبيبته ريتا وهم أصدقائي منذ زمن وعلى الرّغم من أنّ تاريخ بدء علاقتهم منذ زمنٍ طويل إلا أنّ كلّ من رآهم يقول أن اعتراف الحبّ كان بالأمس، توقّفنا في احدى الاستراحات لتفقّد السّيّارات وأخذ قسط من الرّاحة، لقد كان الطّريق طويلاً فلا بدّ من هذه الاستراحة، وأخيراً بعد ساعتين من تلك الاستراحة وصلنا وها هو البيت ذاته بالإطلالة ذاتها، يا لها من صورة تعيد للرّوح حياتها!

بعد أوّل نظرة إلىٰ المكان وقع ناظري علىٰ تلك الشّرفة حيث نزلت ملاك المطر و للحظات شردت حتّىٰ جاء بشير وعلي خلفي وهما يضحكان،، توجّه علي بجملة السّخرية: ماذا أصابك هل عشقت يا فتىٰ وهو يضحك، اجبته لا لكن كما تعرفون أنا لا أنام كثيراً في اللّيل ولهذا، مع وصول ريتا إلىٰ جمعتنا و هي تبتسم و تحدّق بوجوهنا قالت ليحمي الرّبّ هذه الضّحكات الجميلة ويبارك بها، بدأنا بإدخال أشياءنا ووضعها في أماكنها. ثم ّخرجت أنا وعلىٰ لإشعال نار الشّواء بينما كان بشير والفتيات يخرجون اللّحوم واللّوازم الأخرىٰ إلىٰ حديقة المنزل المفتوحة علىٰ الأحراش والمقابلة لمسرح الحلم الذي عشته منذ ثلاثة أشهر، وبينما أزيل آخر قطع اللّحم عن النّار وإذ بفتاة تخرج إلىٰ الشّرفة، ققفز قلبي من مكانه لوهلة متسائلاً أهي ملاك المطر؟، ولكن بعد أن دقّقت قليلاً أيقنت أنّني مخطئ وما إن ارتدّ طرفي كانت فتاة أخرىٰ قد أتت خلفها تمعنت بها فإذا بها هي، إنّها هي نعم، إنّها ملاك المطر حقّاً إنّها هي لقد بدأت ملامح السّعادة ترسم بلا وعي علىٰ وجهي إنّها حقيقة وليست خيال.

بعد الانتهاء من الطّعام جلسنا نتحدّث قليلاً عنّ الذكريات الجميلة وعن الأيّام الجامعيّة وعن مشاريع كلّ منا، بشير حالياً يصمّم مشروعاً لسوق تجاريّ لجميع أنواع السّيّارات وقد وضع فكرة تصميميّة وقدّمها وهو بانتظار تنفيذ أوّل مشروع له وتحوّله من الرّسم إلىٰ أرض الواقع إنّها فرحة عظيمة حقّاً، أمّا زوج الحمام خاصتنا علي وريتا فهما يتحدّثان عن موعد الزّواج والتّجهيزات التي يقومون بها من أجل ذاك اليوم، و سارة الفتاة اللّطيفة فهي تريد السّفر إلىٰ الخارج

حيث يوجد اهتمام لهيئة وشكل المدن والأبنية، فهي ترىٰ أنّ سوريا ودمشق تحديداً هي عبارة عن بعض الأبنية المبعثرة في الأنحاء والكثير الكثير من الأوكار للمأوىٰ ومع العشوائيّات التي تنتشر حولها وداخلها والأبنية المتشابهة ذات التّصميم القديم. في إحدىٰ المحاضرات الجامعيّة في السّابق قال لنا أحد الأساتذة جملة لا تزال مطبوعة في ذهني و هي: " قد تجد في الوطن العربي الكثير ممن يدفعون ثمن المنازل أو السّيارّات أو الطّعام، لكن ما لن تجده إلّا قليلاً هو من يدفع ثمن الفكرة.

أمّا بالنّسبة لي فليس لديّ تلك المشاريع الضّخمة عملي مستقرّ بعض الشّيء وحياتي كما هي في كلّ مساء أجلس في المنزل وحدي وعلىٰ مكتبي أخوض حروباً مع الاقلام والأوراق، أكتب في كلّ ليلة صفحات لا يقرأها أحد فهي مذكّرات خاصّة، وتبقىٰ الكتابة هي مخلّصة روحي من الوحدة ومؤنستها لعلّي في يوم ما أنشر كتابي الأوّل.

في المساء ذهب يزن -الأخ الأصغر لبشير- ليحضر أباه وأمّه من بيت جارهم أبو مضر والذي هو بيت ملاك المطر وسوف تأتي عائلة ابو مضر لقضاء بعض الوقت هنا، دخل العمّ أبو بشير وزوجته وخلفه العمّ أبو مضر وزوجته وابنته لكنّها ليست ملاك المطر و بدأ فكري ينشغل بسؤال واحد أين هي ألم تأتي؟، لم أنهي التّفكير بعد وإذ بالباب يطرق، ذهب يزن ليفتح الباب وبعدها جاءت السّكينة إلىٰ قلبي عندما قال يزن: أهلا أدخلي أهلك في الدّاخل، حقّاً يا أصدقائي لم أكن

مخطئاً عندما اسميتها ملاكاً فهي تزيّن تلك الكلمة بكل تفاصيلها البسيطة؛ بشعرها الأسود المموج كسلاسل الماء و العيون الواسعة الخضراء، بخدّيها المتوردّين وشفتيها النّاعمتين، ولباسها البسيط، لقد كان كلّ شيء فيها يدعو إلىٰ البساطة وفي نفس الوقت لوحة فنيّة من الجنّة، أصابني الجمود لبعض لحظات وشعرت بشعور لم أشعر به منذ زمن أو ربّما لم أشعر به مطلقا.

جلسنا جميعاً وبدأت الأحاديث تتداخل، لا أنكر أن عينيّ كانت تلاحق ملاك المطر، كانت تجلس في المقعد المقابل وتبدي حياءً شديداً، دخلت مع الأهل والأصدقاء في الحديث بينما اكتفيت أنا بالصّمت والمراقبة، وبعد مرور ساعتين تقريباً غادر الجميع المكان، و من خلال تلك الجلسة عرفت أن اسمها "مانيسّا" ما هذا الاسم ترىٰ ما معناه فتحت علىٰ مواقع الانترنت لأعرف معناه وتبيّن أنّه مشتقّ من النّسيان و تبيّن أنّه اسم ابنة أجمل خلق اللّه سيدنا يوسف عليه السّلام وقد سمّاها هذا الاسم لأنّه كان قد نسي همّ عمره بعد مجيئها، لقد كان لأهلها كلّ الحقّ في تسميتها بهذا الاسم فهي تميت الجراح وتنسي الهموم وتبعث في الرّوح الأمل في الحياة.

خرجت مع القليل من الأوراق إلىٰ الشّرفة، حاولت وصف شعوري لكنّ قلمي عجز عن وصف تلك الفرحة ووصف ذاك الجمال اللّامتناهي، أخذت علبة سجائري ونزلت أمام المنزل، وبعد قليل ضوء الغرفة التي علىٰ الشّرفة أنير وخرجت مانيسا إلىٰ الشّرفة، وقفت في تلك اللّحظة أمامي و بدأت بالتّدقيق في ملامحي، ثمّ قالت: مساء الخير.

أجبت مساء الخير.

سألتها: هل أزعجتك بوجودي هنا في هذا الوقت ؟

ضحكت بصوت خافت وقالت: لا بماذا ستزعجني وانت تجلس في مكان عام، كلّ ما في الأمر أنّني لم أستطع النّوم فخرجت إلىٰ هنا، غادرت الشرفة وتوجّهت نحوي وفي كلّ خطوة تخطوها كان النّور من وجهها يزداد، جلست حيث كنت أجلس وقالت: ألا تريد الجلوس دعنا نتشارك السّهر اللّيلة، جلست و سألت: لماذا أنت هنا وماذا يفعل ذاك القلم في يدك هل تخطّ علىٰ أوراق الشّجر ذكريات وضحكات،. أجبتها: لا لكنّني أردت كتابة بعض الأشياء ولم استطع التّعبير فخرجت لعلّ أفكاري تحضر، ولأدخّن بعض السّجائر،

إنّها منطقة جميلة أليس كذلك؟ سألت مانيسا.

أجل إنّها أشبه بقطعة من الجنّة، الجلوس هنا في اللّيل علىٰ ضوء الطّبيعة والألحان التي تعزفها الرّياح مع أغصان وأوراق الشّجر من أكثر الأشياء التي أحبّها، أنت محظوظة كونك تعيشين هنا.

قالت أنا لا أمضي كلّ وقتي هنا بل أمضيه في العاصمة حيث أدرس، وأفضّل ضوضاء الشّام، ربّما الهدوء الذي هنا لا يناسبني كثيراً، وأنت أين تعيش وماذا تفعل هنا؟

أسكن في العاصمة وقد أتيت مع بشير والعائلة والاصدقاء للاحتفال بعيد رأس السنة، ولكنّني بخلافك؛ لا أحبّ ضوضاء الشّام لهذا السّبب أنام في أوقات متأخّرة للاستمتاع بهدوء اللّيل والقيام بأشيائي الاعتياديّة.

قالت: ربّما كلّ شخص منّا له طبيعته وحياته الخاصّة.

أجبت: بالتأكيد هكذا.

سألتني هل أنت من عمر بشير؟ أنا عمري عشرون عاماً وثلاثة أشهر واسبوعين و يومين ونصف ساعة.

تبسّمت لها وقلت: إذاً أنت من مواليد الرّابع عشر من شهر أيلول

نظرت إليّ بعيون واسعة مندهشة وقالت: كيف حسبتها بهذه السرعة!

سألتني إن كنّا سنحتفل مع عائلة العمّ أبي بشير فهم يحتفلون سويّاً كلّ سنة وربّما نحتفل جميعاً هذه السّنة، أجبتها: لا أعرف ولكنّها فرصة سعيدة ولا أظنّ أن يمانع أحد فقد أحبّوا الجلوس مع عائلتك

سألت وماذا عن الجلوس مع مانيسا ألم يحبّه أحد أم أنّها ليست من العائلة؟

أردت استفزازها وقلت: لا لم يحبّ أحد الجلوس معك، فغضبت وهمّت بالرّحيل وأنا لا أزال اجلس، فأكملت جملتي إلّا أنا، توقّفت والتفتت ثمّ قفزت باتّجاهي وردّدت أحقّاً؟ هل أنت محقّ أم أنّها مجاملة؟ لكنّك لم تتكلّم في تلك اللّحظات كيف أحببت إنّك تكذب، أجبت: أنا لا أكذب حقّاً أحببت الجلوس معك وكلّ من كان أيضاً لكنّني تعمّدت استفزازك وضحكت بصوت مرتفع قليلاً، حدّقت بي بنظرة انزعاج وقالت: يا هذا لا أريد الجلوس معك، ذهبت وقبل الوصول إلى الباب قالت: تصبح على خير يا إبراهيم ولوّحت

بيدها. لقد مضىٰ من الوقت مسرعاً وكأنّه لحظة ما الذي فعلته يا مانيسا بي في هذه اللّيلة؟.

لقد كان يوماً متعباً وممتعاً وبعد كلّ تلك السّنوات التي كان عقلي مشغولاً بالأحزان والمشاكل والعالم الخياليّ والأحلام اللّامتناهية تمكّن أحدهم أن يشغله به، لقد بدأ قلبي يدقّ بلهفة قد تتعجّبون من هذا الكلام الذي أقوله ومن هذه السّرعة في لقاء واحد، لكنّكم لم تروها كم كانت جذّابة، أو ربّما لم يسبق لي رؤية فتاة بهذا الجمال الطّفوليّ، لكن يا ترىٰ ما هذا الشّعور أهو حبّ ؟ ربّما لا لم يتعدّىٰ بعد الإعجاب.

في الصّباح التّالي خرجت مع علي وبشير لنحضر مستلزمات الحفل وفي الطّريق توجّهت بسؤالي إلىٰ بشير: ترىٰ هل سيحضر أبو مضر وعائلته الاحتفال معنا؟، قال لا أعرف ولكن علىٰ الأرجح سيحضرون فنحن نحتفل معهم في كلّ سنة ولكن لماذا تسأل؟، لا لشيء فقط لنعرف ماهي الكميّات التي سنأخذها، وبعد التّجوّل في القرية لساعتين انتهينا أخيراً انتهينا من احضار جميع المتطلّبات وها نحن الآن نعود إلىٰ المنزل، دخلنا وضجيج العيد قد حلّ علىٰ هذا المنزل لكنّ الخبر الذي استقبلنا فيه يزن أنّ عائلة أبي مضر جميعها هنا ومانيسا كانت من الحضور، ألقيت التّحيّة بسرعة ودخلت لتبديل ثيابي المتّسخة، فتحت الحقيبة وبدأت البحث، ماذا لدينا هنا القميص الأزرق الذي أذهب به إلىٰ الاجتماعات، بعض الثّياب اليوميّة، ها هو

لقد وجدته إنّه قميصي الخمريّ الذي لبسته لمرة واحد في زفاف صديقي في السّنة الماضية وحان وقته الآن فهذه اللّيلة مهمّة بقدر تلك اللّيلة، إنّها ليلة مع ملاك المطر مانيسا والتي لا علم لي بمن تكون ومن ستكون، خرجت إلىٰ الحديقة مع عليّ وبشير وجلسنا نتبادل الأحاديث عن العمل والواقع وكما هو المعتاد في أحاديثنا.

عند السّاعة العاشرة رأيت مانيسا تخرج من البيت تساءلت في نفسي ترىٰ إلىٰ أين ذهبت؟، بدأت الأفكار تضرب رأسي بشكل متتالي، لابدّ أنّها ذهبت للحديث مع حبيبها أو أنّها لن تحتفل معنا والكثير الكثير، بعدها نهرت بنفسي ماذا حصل لك لم تأت إلىٰ هنا من أجلها لم تكن بهذه العقلية من قبل اهدأ، لكن ما أشعر به أنّي الآن موجود من أجلها، تملّكني الصّمت وقتها واكتفيت بسماعي للأحاديث و تقديم البسمات وهزّ الرّأس، وبعد مضي ساعة علىٰ هذه الحالة كانت المفاجئة الكبرىٰ، طرق الباب وخرج بشير لفتح ذاك الباب والسّؤال الذي كان يدور داخلي بلهفة من هذا أهي مانيسا يا ترىٰ؟

دخلت مانيسا مع فستانها الخمريّ ذو الخطوط الألماسيّة الطّولية وشعرها الخيليّ اللّامع المتدلّي علىٰ كتفيها، تزيّنها فراشة ذهبيّة علىٰ الطّرف الأيمن من رأسها، وأحمر الشّفاه خمري اللّون، وذاك العقد في عنقها المنتهي بحرف اسمها، كانت الأنظار متوجهة نحوها وتراقبها في كلّ خطوة تخطوها، لقد كانت جميلة إلىٰ الحدّ

الذي لا حدّ له، جلست بالقرب منّي وشعرت بأنّي أسعد شخص عندما تبسّمت وقالت: ما بك لماذا شردت بي بهذه الطّريقة أجبتها: لا لا شيء ولكن..

"ملاك زاد علىٰ جماله قطعة حرير اكتساه وفراشة ذهبيّة حطّت علىٰ رأسه وهي ممتنّة له لأنّه أبقاها "

وبعد لحظة من صمتي قالت والخجل في عينيها: شكرا لهذا الكلام الجميل لكنّني لست بتلك الصّورة التي صّورتني إيّاها لقد بالغت قليلاً، قلت: لا لم أبالغ... يا لك من جميلة احمرّت وجنتيها من جديد وسكتت.

إنّها الثّانية عشرة إلّا خمس دقائق، وقف الجميع حول الطّاولة كانت مانيسا بجانبي ثمّ وقفت بيننا أمّها أمام طاولة مليئة بالأطعمة والمشروبات والكثير من الحلويّات، والشّموع والأنوار قد أطفئت، وبعد أربع دقائق بدأنا العدّ التّنازليّ؛ ستّون، تسعة وخمسون...أربعة، ثلاثة، اثنان، واحد..، قدّمت التّهنئة لعليّ و بعدها صافحت تلك الجميلة و تمنّيت لها عاما جميلاً ، يا لحظي الجميل في هذه السّنة لقد كانت سهرة من العمر لا تنسىٰ، انتهينا عند الثّالثة فجراً و بينما ذهب الجميع إلىٰ النّوم ذهبت إلىٰ قلمي وكتبت رسالتي إلىٰ مانيسا :

اعذريني... اعذريني أيّتها الجميلة، يا شبيهة القمر، يا قطرات المطر، يا وردة، يا سوسنة، يا شقيقة السّماء، و يا عيون المها

من تكونين..؟ و من ستكونين.؟، لقد كانت ليلة سعيدة بحضوركم جميعا وليلة سعيدة لأنّك أوّل من بدأت عامي الجميل به و بنظرة من عينك السّاحرة.

لكن يبقىٰ السّؤال من تكونين... ومن ستكونين..؟.

في صباح اليوم الأخير لنا في تلك القرية كان يراودني السّؤال ترىٰ هل سينتهي الحلم هنا أم أنّني سألتقي بمانيسا مرّة أخرىٰ؟، ربّما عدت إلىٰ الحياة لأنّني عشت بعض من تلك اللّحظات التي كنت أتمنّىٰ أن أعيشها طوال تلك السّنوات الماضية.

لم التق بمانيسا طوال اليوم، وفي المساء خرجت وجلست في تلك الرّقعة الصّغيرة حيث جلسنا سويّاً قبل يومين، كانت أحداث البارحة تعرض أمامي وكأنّني أعيش حلم اليقظة، وفجأة أحدهم يقف خلفي ولا يصدر أيّ صوت أو حركة وبصوت خافت وبدون الالتفات قلت: من هنا، واذ بصوت مانيسا يدخل سمعي تقول: ألا أستحقّ أن تلتفت لترىٰ من هنا!؟ لقد كانت مفاجئة حقّا: وردّدت "مانيسا"، نعم هذه أنا ماذا تفعل هنا في هذا الوقت ألا يتوجّب عليك الخلود إلىٰ النّوم من أجل السّفر غداً...؟، أجبت ك نعم ربّما لكنّني لم أعتد النّوم باكراً، قالت: ولمَ لمْ تعتد أم أنّك تفتقد أحدهم؟ تعجبت من قولها أحدهم!! من هم؟، قالت: لا أعلم ولكن ربّما أهلك أو أحد أصدقائك أو جارتك التي تطلّ علىٰ شرفتك و تتبادلان النّظرات والابتسامات كما نرىٰ في الأفلام والمسلسلات أو ربّما كانت

حبيبتك.، أجبت: إن كان لا بدّ من أن أفتقد أحدهم فستكون تلك الفتاة التي تعيش في عالمي الخياليّ منذ أربع سنوات أمّا حبيبة فهذا الشّيء غير ممكن، فأنا لا أملكها وعموماً لا ليس هذا السّبب.

تبسّمت في تلك اللّحظة، لا أعرف السّبب ربّما لكلامي عن الفتاة الخياليّة أو أنّها سرّت لأنّي لا أملك حبيبة، قلت وأنت..؟

قالت: وما بي؟

_ألا تملكين حبيب؟

قالت: لا للأسف لم أجده بعد، رددت متعجباً: أيعقل أن تكون فتاة بصفاتك لا يغرم بها من يراها!؟ وفي نفس الوقت كانت الفرحة في داخلي تدقّ أجراسها.

قالت ربّما يوجد الكثير ممن غرم ولكنّني لم أغرم بأحد ولو أتىٰ أحدهم ليعترف أنّه مغرم بي لكان الرّفض مؤكد لحظتها، ثمّ قالت: هياّ أنا سأذهب وأتركك لترتاح عليك النّوم من أجل الغد، رفضت بشدّة فقالت: بلىٰ لا تناقش.

قلت: حسناً مانيسا ولكن قبل ذهابي هذه بطاقة مكتب عملي وعليه رقمي وإن كان لك أيّ حاجة تظنّين أنّني بإمكاني تلبيتها فاطلبيها، أخذته من يدي وتمعنته وقال مستغربة :هل أنت مهندس!؟ قلت أجل وما الذي يستدعي الاستغراب! قالت: لا لشيء لكن كلّ ما هنالك أنّني ظننتك خرّيج أحد الفروع الأدبيّة وليس العلمية هذا ما توقعته، كلماتك في اللّيلة الماضية تدل ّعلىٰ أنّك ذو لسان أدبيّ قويّ، وحقّاً أشكرك علىٰ كلّ كلمة قلتها، أتعلم لقد دوّنتها في مذكّرتي، ضحكت للحظة وقلت: أحقّاً ؟ ولكن ليس عليك شكري لم أقل

شيئًا إلّا من وحي الواقع، والآن سأذهب إن أذنت لي، قالت: حسنًا ولكن قبل أن تغادر سأقول لك هذه الجملة

"إن كان لا بدّ من الرّحيل فلا بدّ من اللّقاء..." وذهبت.

انتهت كلّ تلك اللّحظات الجميلة والتي ربّما لن تعود مرّة أخرىٰ فيما تبقّىٰ من الحياة، ولكن ما أبقىٰ عقلي مشغولاً حتّىٰ الصّباح هو ما كانت تقصده بتلك الجملة؟، لم أعرف ما قصدته في تلك اللّحظة، هل أنّ لقاءنا كان مقرونًا بالرّحيل منذ البداية؟، أم أنّ الصّدفة الحتميّة ستكون في حياتنا وتذهب بنا إلىٰ لقاء جديد في مكان ما؟ لا أعلم.

في الصّباح ودّعنا الجميع وأخذت آخر نظرة من ملاك المطر، لقد غادرت في الرّحلة الماضية دون ملاك المطر أما في الرّحلة هذه فأنا أغادر مع ملاك المطر مانيسا فترىٰ من تكون.؟ ومن ستكون...؟.

[الفصل٨] فوضى.

هو إدمان أبشع بكثير من إدمان الكحول والمخدّرات والتّدخين أو غيرها، فجميعها ذات تأثير زمنيّ محدّد، ولكنّ هذا الإدمان يبدأ به الشّخص ويدخله دون علمه، يبدو له بأنّه تخطيط لما سيمضي به في حياته القادمة، يصاحبه فرح ونوم عميق وعزيمة للمضيّ ثمّ يبدأ بأكل الحياة شيئا فشيئا، النّوم والصّفو، الهدوء و البسمة وغيرها، إدمان لا شيء محدد فيه، فهو إدمان عامّ تدمن فيه التّفكير بالمستقبل والماضي والواقع و كلّ شيء يجول حولك وكلّ ما قلت و قيل، سيأكلنا أو ربّما أكلنا منذ زمن؛ إنّه إدمان التّفكير.

ماذا لدينا لهذه اللّيلة هنا.؟، أوراق مبعثرة بعضها فارغ وبعضها مليء بالجمل المشطوبة، صحن السّجائر، الحاسوب وأغاني وردة، وماذا أيضا...، هناك بعض الأعمال التي يجب انجازها في الايّام القادمة لا أعلم كيف ستكون.

- إلىٰ اين يتوجّه كلّ هذا التّفكر في هذه السّاعة؟
- ماذا أفعل أنا بين كلّ هذه الأفكار؟
- كيف سأمضي إلىٰ الأمام بين كلّ هذه الطّرق المعوجّة؟
- هل أعود إلىٰ حياتي القديمة؟
- ماذا سيحصل بتلك الأحلام المنتظرة؟
- متىٰ سأنسىٰ كلّ تلك الذّكريات المريرة؟
- أم أنّ النّسيان من الأشياء المستحيلة عندما أريدها؟

- ما الذي اكتبه الآن علىٰ هذه الأوراق ؟
- هل جننت؟

شطبت كلّ تلك الأسئلة التي لم أعرف لماذا كتبتها و أخذت فنجان القهوة وعلبة السّجائر وجلست علىٰ الشّرفة،

لقد تذكّرت يجب أن أستعدّ في الغد سيكون افتتاح أوّل مشروع لبشير ولا بدّ من مرافقته وحضور هذه الفرحة معه.

إنّه لباس الاجتماعات والأعمال من أكثر الألبسة التي أرتديها ومن أكثر الأشياء التي أكرهها صراحة، أخذت سيارتي وفي طريقي كان عليّ شراء باقة من الورود، و عندما توقّفت وجدت سارة، صحبتها معي و في الطّريق سألتها عن أعمالها في هذه الأيّام فقالت إنّها تنتظر الرّدّ لتوقيع عقد عمل مع شركة هندسيّة في كندا وسيأتي الرّدّ خلال ثلاثة أيّام، و عندما وصلنا كان يقف بجانب بشير أبوه وأمّه إخوته علي ريتا ومانيسا، من...!؟ إنّها مانيسا حقّاً ما أجمل هذه الصّدف، ألقينا التّحيّة علىٰ الجميع، والوفود هنا وهناك يقدّمون التّهنئة، كان المشروع المنفّذ غاية في الإبداع، و هذا ليس شيئًا جديداً من بشير فهو من الأوائل دومًا.

قد يظنّ الجميع أنّ مثل هذه اللّحظات مجرّد لحظات عاديّة لدىٰ أيّ مهندس، لكنّ الحقيقة تكمن بأنّ هذه اللّحظة هي مثل تلك اللّحظات التي تتزوّج بها أو ربّما ترزق بطفل أو ربّما كانت أعظم.

اقتربت من مانيسا وبدأت الحديث معها، سألتها عن حالها وردت السّؤال علي، قلت لها: من الجيّد أنّنا التقينا. قالت: أجل ربّما، سألتها ماذا تفعل هنا فقالت بتذمّر: أيكون بشير صديق لك وحدك أمّ أنّ هذا المكان خاصّ بك أستاذي، كم هي جميلة شخصيّتك الاندفاعيّة هذه، ضحكت وقلت: لا لم أقصد هذا بل منذ متىٰ وأنت هنا في الشّام؟، أجابت: من بعد تلك العطلة بأسبوع وسأعود إلىٰ القرية بعد ثلاثة أيّام، قلت: ليسهّل لك الرّبّ أيّامك وهممت بسؤالها عن دراستها وأين تسكن لكنّ الحظّ لم يحالفني هذه المرّة فلم تسمع أيّاً من كلامي، لقد بدأت أصوات الاحتفال تتعالىٰ أكثر فأكثر، ذهبنا إلىٰ جانب بشير والأصدقاء يتغامزون بشأني، وبعد الانتهاء من تلك المراسم وقطع الشّريط الأحمر، بحثت عن مانيسا كثيراً ولكنّ عيني لم تقع عليها، أين ذهبت هذه الفتاة؟ بحثت وبحثت مراراً إلّا أنّها اختفت وكأنّها شبح، بدأت اسأل الأصدقاء لكنّهم لم يروها منذ أن كنّا معا.

- ما هذا الذي يحصل؟
- هل تحتّم عليّ أن أبقىٰ في حيرة من أمري في كلّ شيء؟
- لماذا لا أستطيع معرفة أيّ شيء عنها إلّا بعد العيش بغرفة الفضول لأيّام وساعات؟
- إلىٰ متىٰ سيستمر هذا الأمر ؟

ودّعت بشير واعتذرت منه لأنّني لن أكمل الحفل، إلىٰ أين أذهب؟ إلىٰ المنزل ؟ كان الغضب يتملّك روحي طوال الطّريق، لماذا

هذا يحصل دائما، دخلت المنزل وبعد الكثير من السّهر والتّفكير لم أجد شيئًا سوىٰ الفراغ. لا شيء.

كأيّ صباح كان هذا الصّباح، توجّهت إلىٰ مكتبي، كانت الكثير من الأعمال تنتظر علىٰ طابور نافذتي، حاولت البدء بها لكنّ الأفكار مشوّشة، وبعد ساعة من المحاولة جاءت تلك المكالمة، إنّه علي لقد طلب منّي الحضور إلىٰ منزله لأمر مهمّ بدأ استثار فضولي و لم يخبرني عن سبب الدّعوة، وبعد نصف ساعة طرقت بابه ففتحت سارة الباب، تفاجأت بعض الشّيء، ما الذي يجري في هذا اليوم بين الأصدقاء، دخلت لكن علي رفض القول حتّىٰ يحضر بشير، في هذه الأثناء بدأ علي يسألني عن السّبب وراء اهتمامي بتلك الفتاة مانيسا هل هناك شيء يحدث بينكما ونحن لا نعلم؟ أجبت: وما الذي يمكن أن يكون ليس إلّا تعارف صداقة جديد وما الذي أخفيه هل ارتكب ذنبًا ما لإخفائه.

كان الجواب بسيط إلّا أنّ ذلك السّؤال قد أثار بركان الأسئلة، عما يحدث حقًّا بيني وبين ذاتي حيال تلك الفتاة، إلىٰ هذه اللّحظة لا أعرف مدىٰ تربّع مانيسا في كلّ ليلة وفي كلّ الأفكار.

طرق الباب وهمّت ريتا لفتحه، إنّه بشير ها قد أتىٰ أخيراً، دخل فيما أسرعت سارة لتجلب له فنجان القهوة، وفجأة صرخت بصوت عالٍ، فزع الجميع وركضنا نحوها ونحن نصرخ ماذا حدث ؟ أجابت:

لقد وصل الرّدّ، وصل وقبلت وعليّ تقديم الأوراق خلال ثلاثة أسابيع.

يا لها من فرحة جديدة بين الأصدقاء، صديقة أخرىٰ قد تحقّق مرادها، ولكن ماذا عن عليّ ما الخبر الذي جمعنا من أجله أهو خير أم لا، لقد جهّزت ريتا طعامنا وجلسنا لتناوله والفضول أثار بركاناً داخلي، توقّفت عن الطّعام وقلت إلىٰ متىٰ ؟ أريد معرفة ما الذي أردتم إخبارنا به أريد أن أعرفه الآن، صمت الجميع وبعد لحظات أخبرنا علي بأنّه وريتا قد قرّرا إقامة حفل زفافهما بعد أسبوعين، صرخ الجميع فرحاً، قال بشير متعجّباً: وكيف ستتمكن من تلبيةّ كل المتطلّبات خلال أسبوعين؟! قال: سنجهّز الأشياء المهمّة فقط، وأنتم ستكونون بجانبنا وهكذا ستتمّ الأمور، بدأنا بوضع الأمور التي يجب علينا القيام بها، يجب البدء منذ اللّحظة هذه، خرجت مع بشير لحجز أحد المطاعم، بينما توجّه علي وريتا وسارة لحجز موعد عند صالون التّجميل، وبعد الاستفسار في أكثر من خمسة عشر مطعم وبعد مضي ستّ ساعات أخيراً وجدنا طلبنا، كان مطعماً يتّسع لخمسين شخصاً حتّىٰ السبعين، ولدىٰ المطعم فريق لخدمة الحفلات من الموسيقىٰ والمأكولات والمشاريب والتّنظيف وغيره، عدنا وأجسامنا أصبحت مثل قطع اللّحم المهروسة من التّعب، استلقيت علىٰ سريري وفي ذهني الكثير من تلك الاشياء،

- ولكن ماذا عن العمل؟
- ولكن ماذا عن أصدقائي؟
- ما هذا الذي يحصل في هذه الأيّام؟

لا بدّ أن أجد حلًّا لكلّ هذا حتّىٰ لا أحشر في صفّ المقصّرين.

أغمضت عيني للحظة واذ بلحن رنين هاتفي يتعالىٰ في الغرفة، من هذا الآن أيضاّ؟

إنّها سارة، لقد طلبت منّي أن أرافقها لإنهاء أوراقها المطلوبة من أجل العمل، لا أستطيع ردّها أيضا ماذا الآن؟ الشيء الوحيد الممكن تأجيله هو العمل، سأرافق سارة في الصّباح وبعد الظّهيرة ننهي احتياجات علي، فكلاهما قريبان من لحظة تحقيق حلمهم و لم يتبقّ إلا خطوة واحدة.

ما هذا اليوم أيضـًا؟ فوق كلّ هذا مطر أيضـًا!!

لا بدّ أنّ المشي تحت قطرات المطر شيء رائع ودواء يعطي للحياة نكهة خاصّة وللذّهن أفقـًا بعيدة، ولكنّ الجري في الدّوائر الحكوميّة وفي وسط مليء بالواجبات والأعمال وعقل يتخبّط ببعضه من بركان الأسئلة وجليد الأجوبة شيء سيء، لقد أمضينا حوالي السّبع ساعات ونحن مثل التّائهين في لعبة المتاهة من غرفة إلىٰ أخرىٰ ومن مدير دائرة إلىٰ بائع الطّوابع إلىٰ الطّابق السّفليّ، عند الواحدة والنّصف انتهت أعمالنا لليوم انتهينا معها، توجّهنا إلىٰ بيت علي والتّعب منقوش في ملامحنا وأقدامنا، دخلنا إلىٰ المطبخ فور وصولنا المنزل، وبعد الأكل سألنا ما لذي علينا فعله اليوم، كان بشير قد صمّم وجلب بطاقات دعوة وعلينا اختيار الأنسب، ثمّ ذهبنا إلىٰ السّوق لشراء فستان العروس و الزّيّ الخاصّ بالعريس، لقد أمضينا هذه

الأيّام في انشغال تامّ، من جهة زفاف علي وريتا ومن الجهة الأخرىٰ سفر سارة والكثير من الأعمال.

أجلس في هذه اللّيلة ولم يتبقَّ للزّفاف سوىٰ يومين، أنجزنا كلّ الأمور المتوجّبة علينا ولكن ترىٰ ماهي الهدية التي يمكن تقديمها في يوم زفافهم؟

اتّصلت ببشير ودعوته إلي منزلي لأستشيره، وبعد ليلة كاملة من الاقتراحات قرّرنا أن تكون الهديّة عبارة عن رحلة إلىٰ تركيا لمدّة أسبوعين، في اليوم التّالي اجتمعنا بعد ذهابي أنا وبشير وحجز بطاقات السّفر والحجز الفندقيّ لتجهيز أنفسنا ولباس كلّ شخص منّا.

إنّها السّاعة السّادسة مساءً نحن، الآن في مكان الحفل نستقبل أوّل الوافدين، منهم أصدقاء ومنهم لا نعلم من يكونون، وفي تمام السّاعة السّادسة والنّصف جاء العروسان بطلّتهم الجميلة والبسمة المنقوشة وكأنّ فيهم من الفرح ما يكفي نصف سكّان الأرض، بعد القليل من السّاعات سيجتمع علي وريتا في البيت ذاته وعلىٰ السّرير ذاته، يا إلهي لن يجتمعا في ذاك البيت سيكونان في الطّائرة، و يجب آخذ كلّ أشيائهم وأضعها في السّيّارة، اعتذرت منه وأخذت سارة بحجّة أنّه لدينا عمل مهمّ، ذهبنا إلىٰ منزلهما وجمعنا الأغراض و وضعناها في السّيّارة وعدنا إلىٰ الحفلة.

في السّاعة العاشرة خرج الجميع و لم يبق إلّا نحن، قال علي: هيا سنذهب إلىٰ المنزل خرجنا وقدت سيّارتهما بينما أتىٰ بشير وسارة

بسيّارتي، و بعد نصف ساعة قال علي: إلىٰ أين تذهب ألم نصل بعد ؟ أجبت: لا، أريد أن أجول بكما في العاصمة، كم مرّة ستكونان في هذا اليوم، وبعد مضيّ ساعة وصلنا إلىٰ المطار، توقّفت أمامه، ثمّ أتىٰ بشير وسارة والعروسان في السّيّارة، فتحنا الأبواب وصرخنا بهم هيّا، قالا: إلىٰ أين هنا المطار وليس المنزل هذا ليس وقت مزاحكم، أخبرناهم بكلّ شيء وأوصلناهما إلىٰ صالة الانتظار، ودّعناهم و ودّعوا سارة التي ربّما لن يروها عندما يعودان.

منذ بضعة أيّام كنت أعود من حلم أوّل صديق في واقعنا، واليوم ها أنا أعود من حلم الآخرين وبعد بضعة أيّام سأعود من تحقيق حلم سارة.

وصلت إلىٰ المنزل وسؤال واحد يجول في زوايا عقلي سؤال واحد لا غير.

- متىٰ ستعود أنت من تحقيق حلمك؟
-أجل متىٰ سأعود؟
- أم أنّني لن أذهب حتّىٰ أعود؟
-لماذا حقّق الجميع أحلامهم إلّا أنا؟

ربّما كان الأصدقاء قد حلموا بأشياء و سعوا للحصول عليها، أمّا أنا ألم أسعىٰ ؟

يجب ترتيب الأفكار حتّىٰ نستطيع الإجابة، لنبدأ معك يا عقلي الباطني

- ما هو حلمك؟

- الحبّ

- كيف نستطيع تحقيق الحلم؟

- تحقيقه؟!!!

فعلاً كيف سنحقّقه أو كيف سنسعىٰ إليه؟

أيمكنني قول أنّي سأحبّ فلانـًا ؟ طبعا لا

لا يستطيع الشّخص منّا أن يقرّر من يحبّ ومتىٰ سيحبّ وفي أيّ مكان سيحبّ.

- قد نلتقي بشخص كالملاك أو عادي أو حتّىٰ بشع لكنّنا سنحبّه.

- قد نلتقي في المدينة أو في الرّيف أو في العمل أو في العطلة أو في غابات الصّنوبر أو حتّىٰ علىٰ طوابير المعاملات و القيود لكنّنا سنحبّه.

- قد نلتقي في الصّباح أو في المساء، في حّر الصّيف أو تحت زخّات الأمطار والثّلوج، أو في ساعات الانتظار في البنك، أو في أوقات الازدحام في التّقاطعات لكنّنا سنحبه.

إنّ الحبّ هو الشّيء الوحيد الذي لا يمكن أن نسعىٰ إليه، فهو شيء غير مقرّر وغير اختياريّ تمامـًا مثل الكثير من الأشياء.

_هل يمكنك اختيار جنسك؟

_هل يمكنك اختيار أهلك؟

- هل يمكنك اختيار البلد التي تولد فيها؟

- هل يمكنك اختيار تاريخ ميلادك؟

- هل يمكنك اختيار لونك؟

والحبّ مثل الولادة لا يمكننا اختيار أيّ شيء من خواصّه، فالحبّ من عند اللّه وحده.

ولكنّك قد قلت فيما سبق بأنّ الحلم هو شيء نريده ونسعىٰ إليه، وإن كان الحبّ لا يمكن السّعي إليه فكيف يمكن تسمّي الحب بالنّسبة لك هو حلم الآن ؟

أجل، لقد قلت ذلك ولكنّني حلمت بهذا طوال تلك الأيّام فكيف نسمّي هذا الشّيء الآن؟

بما أنّني أردته فهو حلم، لكن تحقيقه بيد قوّة اللّه و ما علينا سوىٰ الانتظار، فكما ننتظر أن يستجيب اللّه دعاءنا في حاجاتنا الماديّة، علينا أن ننتظر أن يستجيب لحاجة روحنا التي لن يتركها وحدها وإلّا أصبحت تتخبّط بين أزقة الهلاك.

والآن يمكننا تسمية الحبّ بالنّسبة لي بـ" الحلم المنتظر"

لقد أراحت تلك المحادثة مع صوت عقلي الباطنيّ روحي من تلك المخاوف التي كانت تتسابق في خيبتها.

اليوم الثّالث بعد حفل الزّفاف وهو موعد سارة مع تحقيق حلمها، أجلس أنا وبشير وسارة نتبادل الأحاديث والتّوصيات، و قبل مغادرة سارة المطار قدّمت لها قلادة محفور عليها لا تنسينا، قالت: وكيف أنساكم وأنتم أيّامي، وصيّتي لكما قبل ذهابي أن تستمعا لصوت قلبكما، غادرت سارة ربما لن نراها لسنين لكنّها ستكون سعيدة.

عدت إلىٰ المنزل، جلست أمام مكتبي بعد تناول الغذاء وتذكّرت قولها لا تنسيا سماع صوت قلبكما.

ماذا قصدت بذلك ؟ لقد كنت أستمع إلىٰ صوت قلبي في كلّ حين، قد أنشغل عنه بعض الأيّام المليئة ولكنّني أعود إليه.

لدينا رسالة اليوم ولكنّها ليست لملاك المطر المجهولة إنّها لمانيسا :

مانيسا الفتاة الرقيقة ذات الجمال البسيط و الإطلالة الجذّابة، الشّعر النّاعم النّائم علىٰ كتفيك كطير الحمام من تكونين؟

ما هذا الشّيء الذي أشعر به في كلّ مرّة ألقاك بها ؟

ما ذلك السّحر الذي تأثرت به منذ أوّل يوم التقينا فيه وكنت بك جاهل بل ظننتك وهم أعيشه؟

أهو الحبّ ؟

وكيف يكون الحبّ بهذه السّرعة وأنا الذي كنت أنتقد كلّ ما يسمىٰ بالحبّ من نظرة واحدة، كيف من الممكن أن يكون هذا الشّيء حبّ وأنا لم أعرف شيء عنك سوىٰ جمالك واسمك!؟ أنا لا أعرف طريقة تفكيرك ولا أعرف طريقة عيشك، حتّىٰ أنّني لا أعرف كيفيّة الوصول إليك، لقد عشت الحبّ في الكثير من الأحلام لكنّني لا أعرف كيف يكون الحبّ، كتبت عنه وانتقدت فيه ولكنّني إلىٰ الآن يا عزيزتي لا أزال أجهل شعور الحبّ.

ماذا أسمّي ذلك الشّعور الذي أعيشه معك وفي غيابك بالحاجة لاكتشافك؟

ماذا أسمّي كلّ هذا التّفكير الذي أعيشه بين الحين والآخر؟

لا أستطيع تسميته حبّاً فليس الحبّ بهذه البساطة، ربّما أسمّيه يا عزيزتي إعجاباً.

لا أزال أذكر جملتك التي قلتها في تلك اللّيلة " إن كان لابدّ من الرّحيل فلا بدّ من اللقاء "

لقد كنت محقّة فنحن التقينا مرّة أخرى لكنّك ذهبت فجأة، سيكون أحد الأسئلة التي ستتلقّينها هو عن سبب اختفائك ولكن حين نلتقي ولا بدّ أن نلتقي.

[الفصل٩] على أرصفة دمشق.

الجمعة أجلس في غرفتي و قد مضىٰ علىٰ سفر سارة أربعة أيّام، فتحت الدّرج لآخذ علبة السّجائر، و إذ بديوان أنا رجل واحد وأنت قبيلة نساء لنزار قبّاني يظهر أمامي، أخذته لأقرأه، وبعد فتح بعض الصفحات وجدت بعض الأوراق، فتحتها وبدأت بقراءتها:

أعلم يا عزيزتي أن اللّه أرسلك...،
بين أضلع الحياة تمرحين أو ربّما تبكين.
فمتىٰ تأتين وبين أضلعي تبنين بيتك..؟
سيأتي اليوم الموعود قريباً...
وسنجتمع تحت خيوط المطر
وأصوات الحمام و الشّجر...

❋❋❋❋

ستأتين وتنقشين في حياتي لوحةً..
ببشرتك...، وضحكتك...
بعينيك.، وخصرك.
بتورّد خديك.
بشاطئ شفتيك..
وبسلاسل شعرك..

ستأتين وتحفرين في وجهي بسمة شرقيّة.
وتصبح ضحكاتي لحناً علىٰ أوتار غربيّة.
وأتمتم باسمك في طرب في كلّ أمسية.

❋❋❋❋

سنلتقي علىٰ السّلّم أو تحت زخّات البارود...
و أصرخ منادياً ألا إنّه اليوم الموعود.
ستأتين لتختصري بين سطورك الآهات والأحزان.
وتغرسي في تربتي الفرح والجمال والحنان..

❋❋❋❋

ستأتين علىٰ طبق مكلّل بالدّعاء.
وتمسحين أيّام الحزن وساعات البكاء.
وتنقليني من عالمي لعالم الهناء.
لا حقد. لا بعد. ولا بكاء...
حيث
لا شيء إلّا عينيك.
لمساتك. نظراتك...
حبّك.. وعشقك. وغرامي بك.
سنعيش معجزة وجودك...
سنعيش حقيقة حلمي.
سنعيش الجمال.. والهناء..

سنعيش حبّاً عجزت الاساطير...، والخيال..
وكتّاب الشّعر. عن تصويره في الكلام

❋❋❋❋

سأقبّلك وأروي عطش السّنين..
سأسعدك.
وأحميك.
وأطفئ نار الحنين.
فصوتك كأنغام الكنار والبلبل والحسون.
وثغرك الفواح مثل الياسمين..
وعيناك تميمتان..
وأنت معجزة ربّانية،
أنزلها ليجعل منها كلّ شيء حي..

❋❋❋❋

لقد تذكّرت تلك اللّيلة التي كتبت فيها هذه الكلمات، كنت في السّنة الأولىٰ وكنت آمل أن ألتقي بتلك الفتاة، وها قد مرّ الكثير من الأيّام ولم ألقها بعد، ترىٰ متىٰ سنلتقي؟

لا أعلم، أغلقت الكتاب ووضعت الورقة علىٰ الطّاولة مع أغراضي، رفعت صوت أمّ كلثوم وأخذت علبة سجائري وخرجت إلىٰ الشّرفة أتأمّل الشوارع الفارغة من فوضىٰ البشر...

صباح يوم السّبت كان عليّ العمل إضافيًا لتعويض الأعمال المتراكمة، خرجت لجلب بعض الحاجيّات، كان الجوّ غائمًا لكنّ الهدوء عام والبرودة خفيفة، حاولت الخروج بسيّارتي إلّا أنّها كانت معطّلة، توقّفت أنتظر إحدىٰ سيّارات الأجرة وبعد انتظار لعشرين دقيقة أخيراً جاءت، و ما هي إلّا دقائق حتّىٰ وصلت إلىٰ وجهتي، نزلت من السّيارة وإذ بفتاة لها هيئة مانيسا أيعقل أن تكون هي؟

وقفت اتساءل وأنتظر اقترابها حتّىٰ ظهر وجهها الملائكيّ.

ردّدت إبراهيم، قلت: مانيسا أهلا بك كيف حالك؟

أجابت: حمداً للّه أنا بخير وأنت كيف حالك؟

قلت: بخير إلىٰ أين تذهبين في يوم العطلة خيراً إن شاء اللّه

قالت: لا لا شيء لقد عدت الآن من القرية وسأذهب إلىٰ السّكن الجامعيّ، وأنت أين تذهب؟

أجبتها: كان لديّ بعض الحاجات أتيت لأخذها، ما رأيك أن نتناول طعام الإفطار معًا إن لم يكن لديك شيء ؟

قبلت العرض ولكن بشرط أن نوصل أمتعتها إلىٰ سكنها لن تذهب محمّلة بكلّ هذا، أوقفنا سيّارة أجرة وصعدنا وبدأت الأسئلة المعتادة تدور في الحديث

ماذا تفعل في هذه الأيّام؟

ماهي مشاريعك...؟

كيف تسير أمور الأعمال لديك؟

والكثير من هذه الأمور، لا أعلم لماذا أصابني الضّجر من هذه الأسئلة، وما هي الاسئلة التي يجب أن تكون فأنا لست إلّا صديق حديث المعرفة، لماذا لا يعجبني هذا الحوار معها ما الذي يجب أن تسأله؟

لا أعلم، أوصلنا الأغراض وعدنا إلىٰ منطقة البرامكة في دمشق،

سألتها أين نذهب، أجابت: لا أعلم بدأنا بالمشي، سألتها عن سبب اختفائها في ذلك اليوم في افتتاح مشروع بشير، فبرّرت ذلك بأنّ أحد أقربائها كان ينتظرها لأنّها ستذهب معه، قلت: ولماذا لم تخبري أحد ؟ بحثت عنك وقتها وسألت ولم أجدك، قالت: و لم سألت، ماذا أجيب؟ صمت لبضع لحظات وقلت: لا لشيء ولكن ألم نكن سويّة قبل بدء الاحتفال ثمّ اختفيت لهذا فقط.

ومن خلال الحديث سألتها قائلاً: لم تخبريني ماذا تدرسين، قال بتعجّب: لقد قلت لك في تلك اللّيلة ألا تذكر، قلت بيني وبين ذاتي أيعقل هذا لا لم تقل لم أنسَ أيّ شيء من لقائنا في ذاك المساء، سألتني عن سبب وجودي متأخّراً أمام المنزل وما هي دراستي وقالت جملتها التي عشّشت في سمعي "إن كان لابدّ من الرّحيل فلا بدّ من اللّقاء."، أجبتها لا لم تخبريني، قالت: أنا في السّنة الثّالثة في كليّة الصّيدلة، أثنيت قائلاً :إنّه اختصاص جميل لقد أحسنت الاختيار، قالت: ربّما لست من أحسن الاختيار بل عائلتي كانت رغبتي في الإعلام كبيرة لكن ما أخبرني به والدي عن مستقبله الشّحيح والكثير من السّلبيّات

قلّل الكثير من تلك الرّغبة، وبعد التّفكير اقتنعت برغبة عائلتي و ربّما كان هذا حال أيّ طالب في بلدنا هنا.

مررنا من الطّريق المؤدية إلىٰ المتحف الوطنيّ، أجل هناك علىٰ الزّاوية بائع القهوة، سألتها إن كانت تريد فقالت لا مانع لديّ فأنا أحبّ القهوة كثيراً، أخرجت محفظتي لأدفع ثمنها وإذ بورقة وبمفتاحي يسقطان منّي، سارعت مانيسا لأخذها قبلي، جلسنا علىٰ الرّصيف بجانب المتحف وفتحت مانيسا تلك الورقة وبدأت تقرأها - الورقة ذاتها التي وجدتها في مساء البارحة - بينما أخرجت أنا سيجارة وأشعلتها، وعندما انتهت نظرت إليّ نظرة إعجاب وقالت: كلمات جميلة جداً ولكن لمن كل هذه الكتابة والغزل ؟

قلت :لا أعرف، تغيّرت نظرتها إلىٰ استغراب وقالت بنبرة مرتفعة قليلاً: وكيف لا تعرف ألست من كتبها، ضحكت وقلت: بلىٰ أنا من كتبها ولكن لا أعلم لمن، كانت مجّرد أمل أو تعزية لنفسي في وقتها أو ربّما لا أزال بحاجة لها إلىٰ الآن، نظرت لي بطرف عينها وبنبرة منخفضة " لقد صدّقتك".

وبعد صمت دام لبضعة لحظات قالت: ألديك أعمال ومشاريع لهذا اليوم؟

سألتها لماذا تسأل فقالت: منذ أوّل يوم لقدومي هنا وأنا أتمنّىٰ أن أقضي يوماً كاملاً مع أحدهم، أجول الشّوارع والأزقّة، أريد أن أكون كالطّائر لا يوقفني شيء عن التّحليق لا موعد ولا عمل ولا دراسة، حتّىٰ المكالمة الهاتفيّة لا أريد وجودها، هل ترافقني؟

أجبت بكلّ تأكيد لن أرفض هذا العرض فأنا من عشّاق الطّيران، سأغلق هاتفي وأنت كذلك.

وبدأنا نحلّق من ساحة المحافظة إلىٰ شارع الثّورة إلىٰ ساحة المرجة، ثمّ إلىٰ قلعة دمشق وأمامها تمثال صلاح الدين الأيّوبيّ، قالت مانيسا: أتعلم، عندما كنت صغيرة كنت أحلم بزيارة هذا المكان، كان موجوداً في كلّ الكتب المدرسيّة، راحت تركض كطفلة لم تبلغ السّابعة من عمرها، طلبت أن ألتقط لها صور بجانبه وما كان بوسعي إلّا أن ألبّيها.

دخلنا من الشّارع الأيسر لقلعة دمشق، وعندما وصلنا أمام حديقة الزّهور قالت: تعال نجلس هناك لقد تعبت قليلاً، المنظر هنا جميل إحدىٰ أعظم المعالم الأثريّة في دمشق خلفنا وحديقة فيها كلّ أنواع الزّهور أمامنا، ولكن ما شوّه تلك الصّورة هو ذلك المنظر المؤلم ولربّما كان عاراً علىٰ هذه الأرض، شخصٌ يجلس علىٰ حافة الطّريق وبيده أوراق وأقلام رصاص، إنّه فنّان بكلّ معنىٰ الكلمة، قادر علىٰ رسمك في غضون عشر دقائق، أيعقل أنّ شخصاً بهذه الموهبة يجلس علىٰ حافّة الطّريق يرسم المارّة مقابل ثمن قليل ليكسب قوت يومه، أهذه قيمة الفنّ هنا لا يعقل..

أثناء الوقت الذي كنت أردّد هذه الكلمات بداخلي كانت مانيسا تحدّق في ملامح وجهي، أسمر اللّون وعينان بنيّتان، شعري مجعّد قليلاً ثمّ قالت: من أين أتيت؟.

هاجمني الاستغراب من هذا السّؤال، من أين أتيت؟، لم أجب

أخذت قطعة ورق وقلم من حقيبتها وبدأت تكتب وأنا لا أزال أعيش الدّهشة من ذاك السّؤال، وبعد أن انتهت من الكتابة أخفتها في جيبها، ظننتها ستخبرني ما الذي كتبته ولكن ظنّي خاب، سألتها من أنا؟ قالت: لا أعرف أنت أجبني، قلت: وأنا لا أعرف أيضًا.

لقد أمضينا الوقت كلّه في أزقّة دمشق القديمة، لم نترك حجراً من بيوتها إلّا وتركنا لمساتنا عليه، ولا ياسمينة إلّا وألقينا التّحية عليها، ولا عشّ حمام إلّا وتبادلنا عنده النّظرات، ولا باب ولا شبّاك إلّا وزرناه، لقد عزّينا روحنا بتفاصيلها كلّها وأشبعنا قلوبنا برائحة جدران بيوتها.

إنّها الرّابعة والنّصف مساءاً، كيف مرّ الوقت بهذه السّرعة كنّا نجلس في أحد الأزقّة في حيّ باب توما، ناديت مانيسا لكنّها لم تجب، ناديتها مجدّداً ولكن لا إجابة، كانت تسرح في آفاقها غير آبهة لشيء، كرّرت ندائي مرّة ثالثة ورابعة ولا ردّ أيضًا، أردتها أن تصحو ربّت علىٰ كتفها فارتعبت، بادرت بالاعتذار لها فقالت لا مشكلة، قلت: لقد ناديتك لمرات عدّة ولم تجيبي ما الذي يشغل فكرك، قالت أفكّر في هذه الحياة ماهي؟ لو أردنا أن نعرّف الحياة بمنظور كلّ شخص ما أكثر ما سيقال ؟ قلت: لا أعرف ولكن يمكننا القول أنّ الحياة عبارة عن حزم من الأيّام والسّاعات والدّقائق تمضيها الرّوح برفقة الجسد وتبقىٰ الرّوح والتي مركزها القلب محرّكة للجسد ومسيطرة عليه في الكثير من الأوقات، وفي كلّ حزمة يوجد الكثير من الأحداث، الحبّ. الحزن. القهر... الكراهيّة... الفرح.. الضّياع. النّجاح.. والنّجاة، وبعد

الخروج من كلّ حزمة تكون قد اكتسبت حكمتك التي ستستخدمها في الحزمة الأخرىٰ.

كان التّفكير الذي تحمله هذه الفتاة غريب بالنّسبة لتفكير من في عمرها، ليس الجميع إنّما الكثير منهم، ولكن لما الكذب إنّها صفة مميّزة جديدة في مانيسا.

قالت ربّما كان كما قلت أو ربّما لم يكن، يا لي من بلهاء دائما أفكّر بأسئلة لا إجابة لها، قلت لا من الجميل أن يفكّر الإنسان بكلّ شيء حتّىٰ وإن كان معنىٰ الحياة، ولكن يجب أن نبقىٰ متذكّرين أنّ نسبة علمنا في هذه الحياة لا يساوي شيء أمام علم اللّه.

لقد صارت السّاعة الخامسة والنّصف، والنّاس يتسابقون في هذه الشّوارع، أحدهم محمّل بالأكياس ويريد العودة لإسعاد أهل بيته، والآخر قد غلب النّوم علىٰ ملامح وجهه وهو متوجّه إلىٰ عمله، وذلك الشّابّ مع حبيبته، وأنا مع هذا الملاك هنا، سألتها ألا تريدين الذّهاب إلىٰ المنزل، أجابت: يبدو أنّك قد مللت من رفقتي بسرعة ها أنا ذاهبة، وبدأت الرّكض في الشّارع، لحقت بها وحاولت إيقافها لكنّها لم تتوقف، ناديتها بصوت مرتفع بعض الشّيء لم أعتد علىٰ فعل ذلك قطّ لكنّي فعلتها الآن، رغم ذلك كلّه لم تتوقف مانيسا أمسكتها من يدها وأوقفتها، نظرت إليّ بدهشة، لقد كان في ملامح وجهها خيبة، لماذا أنت ذاهبة هكذا لقد فهمت كلامي بشكل خاطئ لم أقصد أنّني قد مللت من رفقتك، لكن أخاف أن يقلق احدهم عليك أو أن يغلق السّكن أبوابه وأنت في الخارج، كان هذا الحادث في الطّريق بين باب

توما و القيمريّة، لم أفلت يدها بعد، لذلك قالت: أيمكنك ترك يدي فهمتك أنا اسفة لقد جاءتني نوبة غضب فتركت يدها.

توجّهنا بعدها إلىٰ جانب جسر الرّئيس بعد أن اشترينا طعامنا وجلسنا كالمشرّدين في تلك الحديقة المجاورة، حتّىٰ أنّ يومنا كّله كان كالمشّردين فلم ندخل إلىٰ أيّ مبنىٰ واستراحاتنا كانت علىٰ الأرصفة.

لا يزال الفضول في داخلي يثور لمعرفة ما الذي كتبته في تلك الورقة عندما كنا بجانب قلعة دمشق هل أسألها أم لا؟

لن أبقي هذا الفضول بداخلي أكثر سألتها

فأجابت :شيء خاصّ أو أنّه سرّ لن أبوح به لك

قلت لا مشكلة اعتذر للتّدخّل، أشعلت سيجارة وبدأت بالتّحدث بانزعاج: لم تتوقّف عن التدخين طيلة اليوم لقد أصبحت رائحتي من رائحة سجائرك هذه..

لم اتفوه بكلمة إلىٰ أن أنهت كلامها، أطفأت سيجارتي وأخرجت زجاجة عطر نسائيّ وأردت أن أعطّرها، فبدأت بالصّراخ: أيّها المجنون ماذا تفعل أنا فتاة لست أحد أصدقائك، ضحكت وقلت إنّه عطر نسائيّ فسكتت، إنّها هدية أحضرتها لزميلة في العمل من صديق لي يمزج العطور وهذه الرّائحة مبتكرة منه، استغربت و بعد أن تأكّدت قالت وماذا يفعل هذا العطر معك هنا ؟ وبدأت أسئلتها وكأنّها غيرة النّساء

قد بدأت بحرق المكان، سارعت للإيضاح لا إراديّاً حتّىٰ لا تظنّ بي سوءاً، لم يسبق لي وأن قمت بالتّبرير لهذه الدّرجة منذ ما يقارب السّتّ سنوات ولكنّني أيضاً فعلتها.

غادرنا المكان وتوجّهنا إلىٰ شوارع دمشق الحديثة وأثناء الحديث قلت لها أريد مصارحتك بشيء يا مانيسا: لطالما افتقدت هذه التّصرّفات منذ ستّ سنوات لكنّها عادت لي الآن لا أعلم لماذا و لم اليوم، تعجّبت وقالت: وماهي هذه التّصرّفات لم أرَ منك شيئاً غريباً، قلت أجل لن تعرفيها لأنّك لا تعرفين كيف أتصرّف من قبل، فأنا لا أصرخ في الشّارع بصوت مرتفع ولا أركض وراء أحد، ولم أبّرر كلمة قلتها لأحد، قالت بنبرة ممازحة: ربّما لأنّك لم تخرج مع فتاة جميلة مثلي من قبل، أجبتها: مغرورة ولك الحقو الحقّ يقال.

والآن حان موعد الفراق، بعد أن ركبنا سيّارة أجرة ووصلنا إلىٰ السّكن الجامعيّ، أخرجت تلك الورقة وأعطتني إيّاها وقالت سأراسلك و نزلت و هي تبتسم.

يا لك من جميلة يا مانيسا، من أنت؟

هلّا أجبتني، من أنت؟

هل أحببتك؟ أم أنّك عابرة؟

لا أعلم، وصلت إلىٰ المنزل وفيّ لهفة لمعرفة ما في الورقة فتحتها بعد إغلاق الباب وقد كتب فيها :

"لقـد كنـت ممتنّـة لـك علىٰ هـذه المرافقـة.. لطالمـا افتقـدت هـذا الشّـعور في حيـاتي لكنّنـي أعيشـه الآن مـع شـخص لا أعرفـه. مـن أنـت.؟ انـا لا أعـرف عنـك سـوىٰ القليـل لكنّنـي أشـعر وكـأنّي قـد عرفتـك منـذ زمـن بعيـد، اعـذرني لأنّني لـم أخـبرك بهـذا في حضـورك لكنّنـي لـم أجـرؤ علىٰ قـول كـلّ هـذا ونحـن معـاً لكـن كان عليّ إخبارك شكراً إبراهيم "

[الفصل ١٠] رشفة أمل

كان ذلك اليوم كجرعة دواء مسكّن، حقن في شراييني أخذتها علىٰ يد ملاك المطر في شهر عاصف بالأعمال والمشاغل، لقد أمضيت ثلاثة أسابيع حتّىٰ انتهيت من الأعمال المتراكمة لم ارتح بها إلا بشربة ماء أو طعام، ما هذه الحالة التي وصلت إليها في هذا الشّهر، تمدّدت في سريري وأنا أنظر إلىٰ سقف غرفتي وأتذكّر تلك الأيّام التي كنّا فيها صغاراً لا يلوذ بنا أيّ همّ سوىٰ البحث عن كذبة للتّهرّب من المدرسة أو الخروج للّعب، أنا اذكر صوت أمّي عندما كانت تقول لنا قبل بدء الامتحانات أنّ المستقبل ينتظرنا ويجب العمل من أجله.

ما هو المستقبل الذي يقصده الآباء في حديثهم؟

الجواب الذي خطر في ذهني هو ذاته الذي خطر في بالكم الآن، كنت أسمعه في صوت والدي وهو يخبرني عن أشياء أجهلها في الحياة، وفي صوت تلك العجوز التي كانت صديقة جدّتي والتي تجلس علىٰ عتبة بيتها في زقاق حيّنا عندما تقول داعية " إن شاء اللّه يا بنيّ عندما تكبر و تكمل دراستك وتعمل وتتزوّج وترزق بأولاد"

لقد كنت أغفل عن هذا الجواب طيلة السّنوات الماضية، أهو لبساطة مجتمعنا؟

أهذا هو المستقبل؟

وماذا عن أحلامنا؟

إن كـان هـذا المسـتقبل فعلـيّ فعـل مـا يفعلـه الجميـع، سـأعيش حياتهم وأموت ليكون ذكري لثلاثة أيام عزاء في مسجد الحـيّ وبعـدها ذهب.

ولكن لم يكن المستقبل في صغري شيئًا كهذا، لطالما حلمت أن يخلّد ذكري كما خُلّد الكثير منهم من أبطال وعلماء وشعراء وكتّاب، ومـاذا عـن تلـك الأحـلام المتطـايرة في الأفـق ؟ أنسـقط فوقهـا عمـل وزواج ونسحقها كما يسحق لحم الفريسة.

أغلـق عينـاي و قـد أهلـك جسـدي التّعـب، ونـال السّـواد تحـت عينـي حقـه جـرّاء قلـة النّـوم، والصّـداع مـن كثـرة التّفكيـر، لـم ألبـث أن أغلـق عينـي حتّىٰ ذهبـت في نـوم عميـق لـم أصـحو منـه إلّا بعد عشر ساعات.

لم انته من تسليم الأعمال حتّىٰ الرّابعة عصراً، وبعـد العـودة إلـىٰ البيت كان لا بدّ من إعطاء ذاتي بعض أوقات التّسلية، فقرّرت الخروج إلـىٰ أحـد المطـاعم، وفي طريقـي اسـتوقفني أحـدهم، لقـد كـان سـامر صديق الطّفولة في ذلك الحيّ، لقد عاش سامر سنة كاملة مع أمّـه يتيمـا بعد أن أخـذ المـرض منـه أبـاه وعـاش في حرقـة الحنين لانتظـاره علـىٰ سـطح المنـزل وهـو يعـود مـن عملـه وفي جيبـه بعـض الهدايـة لطفلـه الوحيد، قبل أن يدخل حيّنا مخطط الهدم، خرجت كلّ عائلة في اتجـاه وانقطعت أخباره عنّي وأنا في الصّفّ الثّامن، دعوته للجلوس معـي في هذا المطعـم القريـب، لقـد كـان الحنين الـىٰ الماضـي الـبريء يتحـرّك بداخلي ويثور علىٰ حاضري، جلسنا وبدأت أخبره عمّا حـدث في كـل

ذلك الوقت بينما كان يصغي إليّ، قلت: وماذا عنك كيف سارت أمور حياتك حتّىٰ الآن، لعلّ ذلك الصّمت يخفي خلفه الكثير من الألم والحزن.

بدأ بقصّ ما حدث بكلّ تفصيل؛ كما تعلم بعد أن خرجنا من الحيّ ذهبنا وعشنا في بيت جدّي، ولبثنا هناك لسنتين، وفي صباح ذلك اليوم كان جدّي قد اشتاق لجدّتي وذهب إليها، مات جدّي وبدأ الصّراع علىٰ الإرث، وبعد ثلاثة أشهر من الصّراع والكلام وزيارة المحاكم جاء الفرج بعد توزيعه، لم تكفِ تلك الأموال إلّا لبيت صغير في منطقة حديثة البناء في أطراف المدينة، كنت في الصّف العاشر عندما بدأت العمل عند أحد الاشخاص في تصليح الأدوات المنزلية، لقد كان صديقي الوحيد وأخاً كبيراً لي علّمني كلّ شيء، نجحت في الشّهادة الثّانوية بتقدير جيّد ودخلت كلّية الحقوق، لكن لم أنقطع عن العمل، فقد أصبحت أستاذاً فيه وكانت تسير القافلة بهدوء، وفي ليلة كنت قد أنهيت كلّ الأعمال وأعود أجرّ قدماي من التّعب، وكما قلت لك أنّ منطقة سكننا كانت لا تزال تحت الإنشاء ولا يوجد بها سير فتدخلها مشياً، وخلال هذه الرّحلة اليوميّة كان هذا اليوم غريباً كانت السّاعة متأخرة بعض الشّيء، وفي الطّريق فتاة من عمري قد أُثقلت بالأكياس التي تحملها، وبدأت أتساءل هل أقدّم المساعدة أم لا، وبعد عدة خطوات ناديتها، ردّت بصوت مرتجف، لقد كانت الأضواء خفيفة في الطّريق حتّىٰ أنّي لم أميّز ملامح وجهها، عرضت عليها المساعدة وبعد إلحاح منّي قبلت، مشت بجانبي علىٰ بعد متر وأكثر ربّما كانت خائفة، سألتها عن السّبب الذي جاء بها في هذا الوقت إلىٰ

هنا فقالت: لقد سكنّا هنا حديثًا ' واليوم نقلنا كلّ أغراضنا وقد نسينا هذه الأشياء في البيت القديم، قلت: عساه خيراً.

تابعنا طريقنا حتّىٰ اقتربنا من البناء حيث أسكن، سألتها هل بقي الكثير لمسكنك؟

قالت: يمكنني الإكمال وحدي فذاك هو البناء، وأشارت إلىٰ المبنىٰ الذي أعيش فيه،

أجبتها: كنت اسأل لأنّ البناء الذي أشرتِ إليه هو المبنىٰ الذي أعيش فيه إذاً أنت جارتي، دخلنا إلىٰ المبنىٰ ورأيت وجهها، كانت جميلة للغاية يا صديقي ولكن وجهها مألوف، حاولت التّذكّر لكنّ ذاكرتي لم تسعفني، أوصلتها لبيتها الذي يقع في الطّابق الأعلىٰ من بيتنا، شكرتني و دخلت المنزل، نزلت إلىٰ المنزل وأنا أحاول تذكّر من هي وقبل أن أفتح الباب تذكّرت، صعدت وطرقت بابها، خرجت قالت: ما بك هل هناك شيء، قلت: لا ولكنّني أظنّ أنّني أعرفك ألست قمر؟

قالت بتعجّب: بلىٰ ولكن ما أدراك باسمي؟

لقد كانت قمر التي سكنت قبل خروجنا من الحيّ بشهرين ألم تذكرها يا إبراهيم. كان أبوها لا يستطيع المشي؟ قلت بلىٰ أذكرها

دعوتها للإفطار في اليوم التّالي عندنا و ودّعتها ونزلت إلىٰ المنزل و أخبرت أمّي بذلك.

في الصّباح ذهبت لشراء بعض الحاجيّات، ثمّ حضّرت الطّاولة مع الوالدة وصعدت إليهم، طرقت الباب ففتحت الخالة أم ّقمر،

ألقيت التّحيّة وسألتها إن كانت قمر أخبرتها عن الدّعوة قالت: سلمت يا بنيّ أخبرتني أجل، قلت :أمي بانتظاركم ونزلت، وبعد عشر دقائق نزلت قمر وأمّها، ولكن الغريب أنّ أباها لم يكن حاضراً، أخبرتني أنّ أباها قد فارق الحياة منذ خمسة شهور متأثراً بمرض في كليته رحمه اللّه.

كانت قمر ستتقدّم هذه السّنة إلىٰ امتحان الشّهادة الثّانوية، وكنت أراها مرّات قليلة خلال تلك السّنة، ولكنّ أمّي كانت فرحتها أعظم بجارتها بعد أن قضت أيّاماً كثيرة وحيدة تنتظر ابنها ليعود من عمله، وبعد نجاحها ودخولها فرع اللّغة الفرنسيّة بدأت صداقتنا تزداد، حيث بدأنا بالخروج سويّة إلىٰ الجامعة، نقضي أغلب الأوقات معاً جانب أمّهاتنا، كان جمالها يزداد في كلّ يوم، وكان قلبي قد بدأ بالتّعلّق بها، و لم أدرك أنّي قد وقعت في شباك حبّها إلّا بعد أن قالت بعد سنتين في يوم عودتنا أنّ أحد زملائها قد صارحها بحبّه و ستجيبه في الغد، لم أعرف ما الذي أصابني لحظتها لم أنم في تلك اللّيلة، بدأت أتوهّم أنّها ستجيب بنعم وأنّها تحبه، فلم يكن يظهر عليها ملامح الرّفض، أيقنت لحظتها أنّ تعلّقي بها ليس تعلّق صداقة أو أخوّة ولكن ما الفائدة فات الأوان.

يا لهذا الألم الذي تلبّسك يا سامر أيعقل العيش بهذا الألم.

أكمل

في الصّباح وقفت أنتظرها حتّىٰ خرجت، وبعد السّلّام سألتها هل قرّرت شيئاً بشأن صديقها، أجابت: نعم فكّرت بأنّه

ربّما كان شخصاً جيّداً، لكنّني مدركة أنّ قلبي لا يريده ولا يمكنني القبول.

كانت إجابتها هذه كافية لإطفاء ذاك الخوف المشتعل في قلبي وفكري منذ الأمس، أكملنا طريقنا بشكل اعتياديّ، وفي المساء جلست أفكّر فيما لو كانت قد قبلت كان من الممكن أن أعيش في ألمي مدىٰ الحياة، يجب الاعتراف بحبّي لها، ولكن كيف سيكون ذلك ؟ فكّرت قليلاً، ثمّ اتّصلت بها، سألتها إن كانت متفرّغة في الغد بعد الظّهيرة، و اتفقنا علىٰ اللّقاء، وبدأت التّرتيب للكلمات التي سأقولها والتّخطيط لتلك المقابلة الاستثنائيّة، لكن عندما بدأ اللّقاء بدا وكأنّ سحابة النّسيان قد حطت عليّ، فقلت بتلعثم: قمر قد نكون أصدقاء منذ وقت طويل ويجب أن تعرفي أنّ ما سأقوله لا يجب أن يؤثّر في هذه الصّداقة، ولكن يجب أن تعرفي أنّني أحبّك، توقّفت مكانها واحمرّت وجنتاها خجلاً، كان قلبي يرتجف و في نفس الوقت يتلّهف لسماع الإجابة، قالت: أنت شخص جيّد و طيب والحقيقة أنّ قلبي يتلهّف إليك في كلّ مرّة نجتمع فيها، يا لسعد قلبي في تلك اللّحظة كانت أوّل أوقات لنا ونحن حبيبان. قرّرنا إخبار أمّهاتنا في نفس اليوم لكي لا تحدث أيّة مشكلة بعدها، وفعلاً أخبرناهما في المساء، لم نكن نتوقّع أنهما ستفرحان لهذه الدّرجة بل إنّهما حدّدتا يوم الاحتفال بتخرّج قمر هو يوم خطبتنا، وفعلاً مضت الأيّام ونحن نعيش حبّاً كبيراً، نتشاجر ونتصالح، حتّىٰ جاءت تلك الفرحة بتخرّج

قمر عندما عدنا ووجدنا البيت قد قلب إلىٰ صالة أفراح فيها كلّ أصدقائنا ونحن متزوجان منذ نصف سنة.

حقًّا لقد فرحت من أجلك يا سامر وقد ذهب بي التفكر إلىٰ الألم، ولكنّك قد لاقيت الفرح والأيّام الجميلة، ليتممها لك اللّه علىٰ خير.

وبعد شرب القهوة حان وقت الرّحيل بعد أن حلفت مئة مرّة أن أزورهم، فلا شكّ أنّ خالتي أمّ سامر ستفرح بوجودي بعد كلّ ذلك الوقت.

عدت أدراجي إلىٰ المنزل وفي روحي شيء من الفرح وشيء من الحزن، أمّا الفرح فلسامر الذي ألقي بشباك حبّ صادق وناجح ومستمرّ حتّىٰ الآن، وأمّا الحزن فلشفقتي علىٰ روحي التي لا تزال تتخبّط بين الأحلام وتعانق آمالاً ربّما بدأت حبالها بالانقطاع واحداً تلو الأخر، علىٰ روحي التي لم تعانق حبّـًا حتّىٰ الآن، ترىٰ هل فات الأوان؟

دخلت البيت و وضعت أشيائي و جهّزت عتادي لخوض معركة الكتابة بعد انقطاع ربّما يراه البعض قليلاً، جلست علىٰ كرسيّ بعد أن جهّزت قهوتي، ماذا لدينا الآن هنا علبة سجائري... فنجان قهوتي.. أوراق مبعثرة...

ولدينا اعتذار لك يا روحي، لابدّ وأنّك قد تعاركت مع نفسك، لكن هذه هي الحياة أشغال لا تنتهي وأحلام لا تتحقّق..

عن ماذا سأكتب الآن حتّىٰ تصفحي عنّي... ؟

لقد سئمت الحديث عن الواقع المليء بالتّكرار والإعادة..
وعن الماضي الذي ترك فيك فجوة واضحة..

عن الأحلام. والتي أصبحت كالأفلام أراها بين الحين والآخر علىٰ شاشة جفني.
وماذا أيضـًا.
لا شيء.. فنحن لم نبرح المكان هذا بعد.

فتحت الدّرج لأرىٰ إن كان هناك قلم آخر فقد انتهىٰ هذا، إنّها تلك الورقة التي أعطتني إيّاها مانيسا قبل ثلاثة أسابيع، لقد نسيت أمر هذه الفتاة بين هذه الأعمال، لكنّها قالت أنّها ستتّصل بي و لم تتّصل حتّىٰ الآن، ترىٰ ما الذي حدث؟
هل أصابها مكروه؟
أم أنّني كنت بالنّسبة لها صديق ليوم واحد؟
ما خطب هذه الفتاة تراود روحي لساعة ومن بعدها تختفي لأيّام؟
ما الذي فعلته يا مانيسا ماذا تريدين؟
تساءلت كثيراً وأجبت باحتمالات كثيرة ولكن ما الحقيقة التي بين يديّ؟
لا شيء سوىٰ أنّني كلّما خلوت بنفسي لدقائق أصبحت أجدّها تجلس بجانبي ، تحتسي قهوتي وتسرق منّي الكلمات بضحكاتها، و

تخطف النّوم من جفني وتعطيني نظراتها، فلا أستطيع النّوم بعدها وكأنّها قد بنت قصرها في مخيّلتي وبأعماق فكري.

إلىٰ متىٰ...؟

من تكونين...؟

ومن ستكونين..؟

[الفصل ١١] بر عمر الحب.

تحت كلّ الظّروف وفي كلّ الاتجاهات، في كلّ قرار جديد أتّخذه كان يجب تنفيذ وصيّة سارة "استمع لصوت قلبك"

قد يؤدّي أحياناً إلىٰ سبل تنتظرنا في نهايتها أشياء معتمة عتمة ليل خالٍ من القمر.

لكن عليك أن تكون علىٰ دراية بأنّ سواد هذه العتمة سينجلي.

ويبقىٰ أنين هذه العتمة أرحم من البقاء في كهف النّدم طيلة العمر.

آمن يا صديقي بأنّ إصغائك لذلك الصّوت المنبعث من جوفك يؤدّيك إلىٰ الطّريق الذي سيتابعك اللّه فيه في كلّ لحظة،

وفي نهاية المطاف ستجد نفسك قد وصلت وقد أديت المهمّة التي خلقت من أجلها.

فكلّ شخص منّا قد خلق ليؤدّي مهمّة بجانب العبادة، فبعضنا ليكون طبيباً والآخر عالم والثّالث مهندسا والرّابع معلّم... فلا تحزن لحالتك.

لكي تتخلّص من ألم ما في جسمك، لابدّ من تحمّلك ألم التّخدير والجراحة والخياطة.

بعدها ستتألّم قليلاً ثم يلتئم جرحك ولا يبقىٰ منه سوىٰ ذكرىٰ بسيطة.

كان يوم الأحد عند السّاعة الخامسة، ذهبت لزيارة عليّ وريتا في منزلهما لأوّل مّرة، فلم تسمح الفرصة لي بزيارتهما في الأسبوع الماضي، جلسنا و كانا يتحدّثان عن تلك الرّحلة التي نظّمتها أنا وبشير لهما، وكم كانت فرحتهما في تلك المناطق كبيرة، وبعد نصف ساعة رنّ هاتفي برقم مجهول، فتحته فكان المتكلّم مانيسا، طلبت منّي أن أذهب إليها فهي تنتظرني في حديقة المدفع، لم تخبرني ما الأمر، كانت الأفكار السّوداويّة تزورني طيلة الوقت، ما الذي حدث حتّىٰ طلبت حضوري؟ وصلت إليها وبي لهفتين لهفة الشّوق إلىٰ ملاك المطر وعينيها الخضراوين ، ولهفة تجميد ذلك الخوف الذي تلبّسني طيلة الطّريق.

كانت تجلس علىٰ أحد المقاعد وقد جدّلت خصلات شعرها فبدت وكأنّها طفلة صغيرة، في المقعد المقابل لها أمّ في الثّلاثينيّات من عمرها ومعها طفلة في الرّابعة بشعر أشقر وضحكة طفوليّة يرقّ لها القلب، كانت عينا مانيسا تلاحقها في كلّ حركاتها و كأنّها تقول متىٰ آتي مع طفلتي، اقتربت إليها وبعد السّؤال عن الأحوال سألتها ما الذي حصل و ما سبب هذه الدّعوة المستعجلة عساه خيراً؟

قالت: لا شيء ولكن كان يجب أن أتّصل بك منذ وقت طويل لكنّ هاتفي تعطّل بعد ذلك اليوم، قد استحمّ بالماء وقبل قليل اشتريت هاتفًا جديداً، كان لابدّ من الاتصال بك والاعتذار ولكن لم أجد أنّ الاعتذار علىٰ الهاتف قد يأخذ حقّه لهذا طلبت حضورك،

وأيضـًا الجوّ جميل ربّما أردت استغلال الفرصة بصديق درب إن لـم تمانع.

قلـت: مـا حصـل إلّا الخيـر ولا داعـي لكـلّ هـذا الاعتـذار، ولكـن مـن الجيّـد أنّـي رأيتـك وبالتّأكيـد سـأكون صـديق دربـك اليوم أيضـًا.

كنـت أتأمّلهـا طيلـة الحـديث و أنقّـل نـاظريّ في بسـتان العيـون الخضر المسيّجة بالرّموش الطّويلة ومن كثافتهم تظنّهما جناحي طائر، وبعـدها إلىٰ كوكـب الخـدّين اللّـذين يتضـرّجان خجـلاً عنـد النّظـر في عينيها، لأتوه بعدها بين ذاك البياض المتوهّج من فمها حين تضحك، و بيـاض البشـرة الـذي يـراه المـرء في الأحـلام عنـدما يظهـر لـه جنّـي الأمنيات، لم ننتهي بعد فهناك في الشّفتين شيء من تـوت الشّـام وأخـر من لهيب البركان، لا أعرف كيف اجتمع ذلك كلّه فيها.

تنقّلنـا بـين زحـام النّـاس في شـوارع دمشـق الحديثـة التـي كنـت أتحاشـها طيلـة الوقـت، لقـد كانـت هادئـة بوجودهـا أو ربّمـا كـان الهـدوء قـد انتشـر في جـوفي بوجودهـا، كـان وجـودي معهـا بمثابـة الـدّواء للضّـجر في روحـي، فثمّـة سـحر في تلـك الفتـاة قـد زرع بداخلي منذ لقائنا الأوّل.

وبعد ساعتين تقريبـًا أرادت الرّحيل، وقبل ذهابها سألت إن كنت أذكر الرّسالة التي أعطتني إيّاها ثمّ قالت: رسالتي اليوم لن تكون ورقيّة فهي إضافة للكلام الذي قلته، وبعد شكراً إبراهيم، سنلتقي في المرّة

القادمة في المكان ذاته لنعلن صداقتنا رسميّاً إن أردت، ولم تسمح لي بأن أجيب، قالت: أبق جوابك لفعلك وذهبت...

ماذا كان المقصود من ذاك الكلام

أهو بمعنىٰ وضع عنوان واضح لفقرتنا في هذه الأيّام؟

أم أنّه عرض للتّقرّب بيننا؟

أم أنّه حاجز أرادت وضعه للأفكار التي تتسابق في الذّهن؟

ما هذا الغموض الآن؟

لا علينا، لمعرفة نجاح العمليّة لابدّ أن نجريها، وللتّعرّف علىٰ مفعول ذلك الدّواء وتأثيراته يجب تجربته.

كان هذا الوقت عبارة عن وقت لاتّخاذ القرار علىٰ الرّغم من أن القرار واضح ولكن لماذا كان؟

يوم إعلان الصّداقة مع تلك الحسناء سيكون أحد الأيّام المدوّنة في كتب التّاريخ، علىٰ نفس المقعد كانت تنتظرني وفي الوقت ذاته لكن لم يكن هناك امرأة مع طفلتها، في كلّ مرّة أراها كانت ترمي سهم بسمتها، وفي كلّ مرّة أكون متعطّشاً لها، فاتحاً صدري لسهمها ليصيبني، قالت: والآن لنبدأ مراسم صداقتنا إن كنت توافق.

أجبت: موافق ولكن ماهي مراسم الصّداقة هذه ؟

قالت: ما عليك سوىٰ الإجابة عن السّؤال الوحيد، ما السّبب الذي حثّك علىٰ قبول الصّداقة؟ ولكن إجابتك لن تكون شفهيّة ستكتبها، وبعد مرور شهر من اليوم سنقرأها سويّة علىٰ هذا المقعد

وفي الوقت ذاته، سأكون قد كتبت الأسباب التي دعتني لصداقتك، والآن لنبدأ أوّل يوم في صداقتنا.

أذكر أنّنا في ذلك اليوم لم نفعل شيئًا سوىٰ تناول الأطعمة من المحلّات المجاورة، كانت عيناها تلمعان فرحًا، فقد ظهر ذلك في عمق ذاك الجنون والضّحكات، وعندما ركضت في منتصف الطّريق كطفلة تهرب من أخيها وهو يمازحها، وبعد كلّ ذلك الوقت جلسنا علىٰ رصيف أحد الأبنية، وكان كلّما نظر أحدنا إلىٰ الآخر ضحك.

انتهىٰ لقاء اليوم وكالعادة في كلّ مرّة اكتشاف جديد عن مانيسا يزيدها من الجمال جمالاً، همّت لتذهب فأوقفتها وسألتها: ألا يوجد رسالة اليوم ؟ فقالت: لا رسائل بعد الآن إلىٰ موعد الصّداقة ولا تنسىٰ لن يقتصر اللّقاء هنا فقط، أجبتها: كما تشائين، بالتّأكيد فنحن منذ اليوم أصدقاء ثمّ ذهبت، في كلّ مرّة كان ذهابها ذو تأثير شديد، كنت أشعر وكأنّ الجمود قد عاد إلىٰ حياتي فجأة، لا أعرف ما الذي فعلته مانيسا ولم وإلىٰ متىٰ ستبقىٰ بهذا التّأثير، ربّما يذهب مع الوقت.

بعد العودة إلىٰ المنزل جلست علىٰ مكتبي و شيء من الفرح يجول حولي، جهّزت قلمي لأجيب عن سؤالها

لماذا قبلت صداقتها؟

كان هناك الكثير من الإجابات التي حطّت علىٰ أوراقي، وبعد ستّ ساعات من التّفكير والكتابة وانتقاء الأجوبة

المبعثــرة في الأوراق اســتطعت كتابــة الجــواب أخيــراً، أغلقتــه ووضعته في درجي إلىٰ موعده.

أمضينا شهراً و لو أردنا كتابة أحداثه لتطلّب منّا ربّما عامـاً، كنّا نلتقي كلّ يومين في البداية واليوم الـذي لا نلتقـي فيـه نتحـدّث هاتفيّـاً حتّىٰ أوقات متأخّرة وكأنّنا نعيش الحياة ذاتها.

في أحد الأيّام اتّفقنا علىٰ الخروج في رحلة مع بشير وعلي وريتـا، كان للأصدقاء معرفة بلقاءتنا ولكنهم لم يتصوروها بهـذا القـرب، كـان كلّ شـيء علـىٰ مـا يـرام وقـد انتشـر في مكاننـا الفـرح و السّـعادة، وبعـد الشّواء والغـداء جلسـنا وبـدأ علـي وريتـا بالغنـاء، بينمـا جلسـنا نسـتمع إليهما، ذهبت مانيسا لمكان مجاور عند ساقية، في البداية ظننتهـا ملّـت من الغناء، فذهبت إليها لأراها شاردة و قد تجمّعت الدّموع في عينيهـا، سألتها بتعجب، ما بك مانيسا ؟!!!

قالت: لا شيء، أحببت أن أبقىٰ بمفردي قليلاً.

قلـت: ومـا الـذي دفعـك للبقـاء وحيـدة ألـم نكـن في سـعادة قبـل قليل!؟ حدّثيني ماذا هناك وما هذه الدّمعة التي حبست خلف جفنيك.

قالت: تذكّرت أخي.

أخي؟ ولكنّها لم تذكر لي أنّ لديها أخ، عجباً لهذا الوجه البريء كم يخفي ورائه غموض.

ثـمّ بـدأت تحدثني عـن أخيهـا مضـر صـاحب الثّلاثـة والعشـرين عامـاً، كـان مضـر طالبـاً في المعهـد العـالي للتّمثيـل، وكـان ذو أنامـل مبدعة علىٰ العود، وبصوت ذهبيّ، وفي كلّ مرّة كانت تخرج العائلة في

حفلة شواء كان يجلس مضر وأبوه ويغنّيان، مضر الشّاب صاحب الثلّاثة والعشرين عاماً لم يكن أحد يعلم بأن هذا الصوت سيكون ذكرىٰ لن تتكرّر، مات مضر وهو في الثّالثة و العشرين من عمره بعد إصابته بجلطة دماغية لم يرافقها إلا لدقائق، عجبا لهذا الموت كيف يستطيع الفتك بشبابه، لا داع لهذا الكلام الآن إنّه قدره، مسحت دمعتها وتبّسمت في وجهي الذي كان قد تغيّرت كلّ ملامحه، وقالت: ذهب ومضر وأتيت أنت، دعنا نعود إلىٰ الرّفاق أمسكت بيدي وكأنّها تقول: إيّاك أن تتركني وحدي بعد الآن.

لم أرَ شبيهاً لتلك النّظرة التي كانت تكتظّ بالشّوق والقهر واللّوعة والجرح، شعرت وكأنّها انتزعت الحزن من جوف الأرض وزرعته في جوارحي بتلك النّظرة، ماذا أقول لها وما الذي يعوضنا عن فقداننا لأحدهم بالموت.

وهل أستحقّ تلك المكانة التي منحتني إيّاها مانيسا؟

ولماذا منحتني إيّاها بالرّغم من أنّني لم أعرفها إلّا لأيّام؟

لا علينا، إنّه ليس وقت السّؤال عن هذا الآن سأعرف لاحقاً، أمسكت يدها بالقدر الذي كانت تمسكني بها وذهبنا إلىٰ الأصدقاء، اكملنا رحلتنا ولكن لم ينتهِ الحزن فيها فلا يزال يبرق في عينيها، وأثناء عودتنا ذهبت لإيصالها، وقبل الوصول نظرت إليّ وكانت لا تزال تلك الدّمعة الحبيسة مستوطنة في عينيها، قالت: قد قلت لك في أوّل يوم لك لا رسائل بعد الآن ولكن لديّ رسالة لك ليست طويلة "في

الأمس قلت لك إن كان لابدّ من الرّحيل فلا بدّ من اللّقاء والتقينا والآن أقول لك قد حضرت في حياتي فلا ترحل"

لقد زاد هذا اليوم تعلّقي بمانيسا، ومنحني سببًا جديداً للبقاء، كما أنّه أثار الفضول في داخلي أكثر عمّا سيكون مكتوب في إجابة مانيسا، لقد بقي خمسة أيّام للقائنا ولا أعرف كيف سأتحمّل هذا الفضول لوقتها؟

أخذت الورقة التي أجبت عليها وقرأتها لمرّات عدّة بتمعّن، ثمّ أغلقتها وجلست على الشّرفة مع القليل من الألحان.

قبل يومين من الموعد كنت ومانيسا كعادتنا بين الأزقّة نتمشّى ومن خلال الحديث عن الواقع والماضي والمستقبل والأمنيات سألتها :

لو فرضنا أنّك تجاوزت من الزّمن سبعة سنين، في أيّ جزء من حلمك تتوقّعين وجودك؟

نظرت إليّ وهي متفاجئة، ما هذا السّؤال؟

لم أفكّر به من قبل ولكن دعني أنظر في مخيّلتي قليلاً

أرى نفسي أدخل لأوّل مرّة لافتتاح مختبري الخاصّ، والذي سأجري فيه تجاربي لاكتشاف أدوية جديدة، أرتّب أشياءه بنفسي دون أن يدخله أحد، وأمضي فيه ساعات طويلة جداً وحتّى أوقات متأخّرة، وأرى نفسي أزداد في الجمال أكثر وأكثر، وفي الصّباح أخرج لألقاك، وأراك وقد شاب شعرك و سقطت أسنانك، ومع ذلك لاتزال تمسك

تلك السّيجارة بيدك، لقد كبرت في العمر وحُني ضهرك، وضحكت، كنت أنظر إليها وقد أبديت لها الانزعاج.

قالت: أنا أمزح لا أكثر أنت لن تكبر إلىٰ هذا الحدّ في سبعة أعوام.

إذاً لديك حلم أكبر من أن تكوني طبيبة صيدلانيّة، هذا الطّموح الذي تحملينه جميل جداً، ولكن لم تصفي حياتك بوجود أحد؛ زوج أو حبيب أو أحد بهذه الصّفة القريبة، قالت: لا أفكّر به، ربّما يأتي بالمصادفة مع الأيّام، وربّما لن يأتي، لا يمكنني تخيّله حتّىٰ فهو شيء لا نستطيع السّعي إليه.

ربّما كانت مدركة لهذا الأمر الذي لم أدركه أو ربّما لم أكن أريد إدراكه.

كان الغريب من بعد ذاك الحديث أنّ السّكوت خيّم علينا.

راحت مانيسا تتأمّل الشّوارع التي نحن فيها، أو ربّما لم يكن ذلك، ربّما كانت تفكّر بالسّؤال الذي سألته أو بالإجابة التي ستأتي أو.

ما الذي استوطن فكر هذه الجميلة؟

لا أنكر يا أصدقائي أنّه كان وقتاً كافياً لتأمّل البراءة في زوايا ملامحها، كانت المرّة الأولىٰ التي يقع بصري في تلك الحسناء علىٰ رقبتها، أيعقل هذا كلّه أيّة قطعة نادرة أنت يا مانيسا؟

من أين أتيت؟

كأيّ لقاء كان ينتهي بنظرات مجهولة التّعريف ‘ نظرات خوف من عدم اللّقاء مرّة أخرىٰ، نظرات فرح لكلّ دقيقة مرّت هنا، نظرات الأمل باللّقاء غداً، نظرات الصّلة المجهولة التي ربطت بيننا.

في اليــوم الأخيــر المتبقّــي لإدلاء الإجابــة أمامهــا اعتــذرت مانيســا عــن الحضــور، ولكــن كــان القلــق والتّفكيــر يأكــل الوقــت كالصّــائم دهــراً، وللنّســيان ذهبــت لزيــارة الصّــديقان علــي وريتــا، لــم أعــد أشعر بالمتعــة دون وجودهــا فمــاذا فعلــت يــا مانيســا، كانــت جلســتي عبــارة عــن القليــل مــن الكلمــات والكثيــر مــن الشّــرود، ســألت ريتــا: مــا الأمــر هــل حصــل شــيء ؟، أجبــت: لا لــم يحصــل بعــض التّعــب والأرق المعتــادين، قفــز علــي وقــال: اتركيــه يبــدو وكأنّــه عاشــق ولهــان، ضــحكت و قلــت بتعجّــب عاشــق!!!!!؟ مــن أنا ؟ في نظرك هل يحصل هذا إلا بمعجزة؟

قال وربما المعجزة قد أتت وأنت تخفي هذا.

سألته وكيف ماذا تقصد؟،

قال: ومانيسا

قلت وما بها ليست إلّا صديقة عاديّة، لا تأتي بكلام من مخيلتك.

قال: كما تشاء ولكن فكّر قليلاً.

خرجت وقد أثار علي بركان الأسئلة في رأسي من جديد، ولكـن ليس هناك وقـت للإجابة حتّىٰ نعـرف جـواب مانيسـا، حاولـت النّوم وبعد ساعة نجحت.

حان موعدنا الآن، التقينا وفي يد كلّ منّا إجابته، وبعد أن أخذ كلّ منّا جـواب الآخـر هممـت بفتح إجابتهـا لكنّهـا أوقفتني وقالـت: هـذه الأجوبة ستقرأ بعد الوداع بيننا اليوم، أهـي عقوبـة جديـدة ؟، لـم يطل هذا اللّقاء، ربّما لم يتجاوز السّاعة فلا شكّ أنّ الفضول قـد أحرقنـا، في

الوقت الذي افترقنا به رأيت مانيسا تخرج الورقة لتقرأ ما كتبت في إجابتي التي تقول:

عزيزتي مانيسا أمّا عن السّبب الذي دعاني لقبول صداقتك فلا علم لي به لقد استمعت إلىٰ صوت قلبي وهو الذي أجاب

ولكنّني لا أنكر أنّ هناك شيئًا غريبًا كان منذ اللّقاء الأوّل بيننا

لم أنسَ كلّ تفاصيلها وحتّىٰ تلك الفرّاشة التي حطّت علىٰ رأسك.

هناك الكثير من الأسباب وراء هذا القبول، ربّما كان جمالك النّادر كزهرة البيرو، أو ربّما كانت الجاذبية التي تخرج من عينيك الخضراء، أو حتّىٰ تفكيرك وشرودك، أو ربّما كلّ شيء فيك.

في الحقيقة لا أعرف إن كان أيًّا من هؤلاء هو السّبب

ولكن ما أعرفه هو أنّها جميعها موجودة فيك

قبلت صداقتك لأجيب عن ذاك السّؤال الذي سألته يومًا

من تكونين.؟ ومن ستكونين..؟

وقبلت الصّداقة لأجد جواب لسؤالك ذاك أيضا

من أنت..؟

قبلت صداقتك لأنّ قلبي قال هذا وما كان عليّ إلا السّمع و الطّاعة.

في الوقت الذي فتحت إجابتها التي قالت :

في لقاءنا الأوّل كنت أعرف أنا ذاك السّهر الذي عاشت به عينيك البنيّتان يخفي أمراً خلفه، وظننت أنّ ذلك الصّوت الثّابت يخفي شخصًا خشنًا قد يكسر كلّ شخص يحاول الاقتراب منه باللّامبالاة،

وأنّ ذلك السّمار الذي تملكه بجانب بعض التّلاعب بالكلمات بلسانك اللّبق ليس سوىٰ فخاً لتصطاد به القلوب، لا أنكر أنّي كنت خائفة من تلك البسمة الغريبة التي تمتلكها في تلك الأوقات، ولكن في الحديث الأخير وقبل ذهابك، شعرت بشيءٍ من الحنان في نظرات عينيك السّاحرتين، والبسمة التي تملكها بعثت في داخلي وهجاً لم يدخل لي منذ رحيل مضر، وبعد النّهار الطويل ذاك عرفت أنّ ذاك الهدوء الكامن في روحك ليس إلّا براءة الطّفولة، وجدت بك أشياء لم أتخيّل أنّي سألقاها في أحد بعد موت أخي.

ربّما كان هذا السّبب بالإضافة إلىٰ ذاك الشّعور الغريب بالفرح عند اللّقاء، والشّعور الفوضويّ عند الرّحيل في، كلّ مرّة كنت تنظر في عينيّ كنت أشعر وأنّ سحرها قد أصابني، أخاف أن ترحل يوماً ما وتتركني كما ذهب مضر لهذا أريدك أن تعلم هذا.

دخلت حياتي بإرادتك ولكن لن تسمح الفرصة بعد الآن بالذّهاب

كلّ الشّبابيك قد عمّرت

والأبواب قد اغلقت وسبكت

لا خروج بعد الآن

من أنت لا أعرف، ولكن أعرف أنّي بحاجة لتلك النّظرات وتلك الكلمات، وذلك الشّعور الذي يتملّكني بجانبك.

قرأت تلك الكلمات وكأنّها رقية أدخلت لقلبي الكثير من الأحاسيس أوّلها الفرح.

جهّزت سريري لكنّني لم أنم، كان كلام علي يحوم في الأرجاء، "عليك التفكير"، أجل عليّ التّفكير، لقد جرّبت الصّداقة كثيراً قبل الآن ولم ينتابني هذا الشّعور

ما هذا الهراء أنت تعلم أنّها ليست صداقة

- اذاً ماذا تكون؟
- أهو إعجاب؟
- أم حبّ؟
- أم ماذا؟

لوكان إعجاباً لن يكون بهذا التّأثير الذي سيقلب الإنسان رأساً علىٰ عقب.

- أهو الحبّ حقاً؟

أجل ربّما أكون قد حلمت بالحبّ لكثير من اللّيالي ولكنّني في الحقيقة لا أعرف شعور الحبّ.

وبما أنّها ليست إعجاباً ولا صداقة وبما أنّ القلب قد اختار البقاء معها فلا شكّ أنّه سيجيبني الآن

- هل أنا أعيش الحبّ الآن؟
- لطالما كنت شخصا لامباليًا
- كنت شخصًا متكاسلاً
- كنت تكره الخروج من كهفك

- تكره التّخلّي عن عتمة غرفتك
- والتّغافل عن أحلامك التي رسمتها كلّ يوم
- لطالما كنت شخصاً يرفض السّعي من أجل أحد
- ولا تكترث لرأي أحدهم بك
- والكثير من التّفاصيل الغريبة بك
- ألا تتساءل عنها الآن ؟
- ألا تشعر بأنّ جميعها قد رحلت؟!
- لماذا ؟
- متىٰ حصل ذلك؟
- أليس منذ ذلك اليوم الذي كنت به مع مانيسا؟
- ألم ترىٰ في مانيسا أشياء لطالما انتظرتها؟
_لماذا تنكرها الآن؟
_أجل إبراهيم
_لقد أحببت
- لا تفسير لذلك إلّا أنّك دخلت في سرب العشاق.
- أجاب قلبي، لقد أحببت أخيراً
- ولكن كيف سيكون ؟ لا يعقل أن يكون حبّاً إن لم تبادلك هذا الشّعور

ربّما كان بين تلك الأحرف التي كتبتها لك شيء من الجهل للحبّ الذي تعيشه كما كان الأمر لديك.

ولهذا يجب أن تدلّها علىٰ طريقها لمعرفة حقيقة شعورها تجاهك.

[الفصل ١٢] اعتراف

أنا... ومانيسا. والحبّ..

لم تكن قضية الاعتراف لذاتها وإدراك حبّها قضيّة شخصيّة فهي قضيّتنا كلانا.

والآن لابدّ من إدخال مانيسا لدائرة المعرفة وتسجيل أقوالها وموقفها من هذه القضيّة.

وماهي الطّريقة التي سندخل فيها مانيسا؟

هل سيكون الاعتراف لها بهذه السهولة؟

لا أظنّ فالاعتراف لذاتي كان يحتاج كلّ تلك الأدلّة للإثبات

أحبّك مانيسا، هذه هي الجملة التي يجب قولها ولكن أهي بسيطة؟

إن كتابة هذه الجملة في مذكّراتي قد تطلّب منّي ارتجافاً في الأطراف وارتفاع في حرارتي وتسرّع ضربات خافقي، فماذا سيتطلّب قولها أمام تلك الجميلة؟

ربّما سيكلّف الأمر روحي، وربّما خسارة صداقتها وفقدانها.

أيعقل ذلك؟

ماذا لو رفضت كيف ستتجمّع أشلاء صداقتنا بعد أن أسقطت عليها قذيفة الحبّ؟

ما هذا الشّعور! وكأنّه طريق ملء بالألغام القديمة، كلمة واحدة ستحدّد إن كان اللّغم يعمل أم لا.

كعادتنا التقينا من جديد، وكان الاعتراف يجول علىٰ أطراف لساني، استوقفتها عن الحديث لأخبرها ولكن ماذا قلت؟

كانت رسالة جميلة وكأنّك اقتطفتها من ألسنة الأدباء وطرّزتها علىٰ تلك الورقة.

قالت: وفي رسالتك الكثير من الغموض وكأنّي أقرأ كلمات أبحث بين أطرافها عن القول الذي كان يختبئ خلفها.

فكّرت بيني وبين ذاتي وما الذي يختبئ خلفها أم أنّها فهمت معنىٰ تلك المشاعر التي قلتها بجهالة من أمري؟

في كلّ لحظة كنت أتأمّلها لعلّي أرزق بقوّة تمكنّني من الكشف عن قلبها ومعرفة ما الذي يختبئ داخله، أو أن أرىٰ ردّها قبل القول فأعرف ما يتوجّب فعله.

حاولت جاهداً أن أدلي باعترافي لها وفي كلّ مرّة كان شيء منها يستوقفني، ففي المرّة الأولىٰ نظرت إليّ بعينيها فسرقت الكلمات من شفاهي، و في المرّة الثّانية ناديتها باسمها فأجابت نعم، فتهت في لحن صوتها، والثّالثة في شعرها، والرّابعة في لمسة يديها والخامسة في ضحكتها،. كلّ تلك التّفاصيل التي تحتوي قطعة جسدها كانت تلقي سحرها عليّ فأجلس ساكنًا وكأنّني ذاك الطّير الذي يحاول الهبوط في غابة، فيستوقفني في كلّ مرّة فخّ يودي بحياتي وأفلت منه في آخر لحظة، وفي كلّ مرّة أحاول الهبوط أجد نفسي في فخّ جديد للصّيّاد ذاته، فيخرج صوت من بين كلّ تلك الأشجار يناديني ويقول: لن تتمكّن من الهبوط إن لم تسقط في إحداها.

حقـًا أقولها قد سقطت في جميعها، فكلّي تجزّء إلىٰ الكثير، وكـلّ جزء سقط في شيء لك فارحميني واجمعيني.

تاللّـه لـن أبـرح مكـاني إن لـم تكـن معـي ولا سـبيل بعـد الآن للعودة.

انتهىٰ اللّقاء ولاتزال تلك الكلمة "أحبّك" تحوم في كلّ مكـان في جسدي تحـاول أن تسـلك الطّريـق وفي كـلّ مـرّة تتـوه في النّهايـة وتغيّـر الطّريق حتّىٰ باتت سجينة في المتاهة، فمتىٰ تخرج؟

جلست علىٰ مكتبي وأخرجت تلك الإجابة وقرأتها لمرّات عـدّة علّي استنتج الجواب منها، وكان الفشل واضحـًا.

في اليـوم التّـالي جلسـت لسـاعات وحاولـت تـذكّر جميـع تلـك الأحـداث التـي جـرت منـذ بـدايتها لعلّـي أربـط الأحـداث ببعضـها حتّـىٰ اسـتنتجت نسـبة كبيـرة تـدلّ علـىٰ أنّ ذاك الشّـعور بالحـبّ متبـادل، وأعـدت قـراءة الإجابـة وقـراءة عينيهـا، شـعرت للحظـة أن ذاك الحـبّ متبـادل لحـدّ مـا، تـرىٰ مـاذا سـأفعل بالحقيقـة المختبئة خلف هذه الصّغيرة؟

يجب الاعتراف لها بأيّة وسيلة وإلّا ستبدأ الأفكار والنّدم تنبت في حياتي من جديد، لا مهرب يجب الاعتراف.

ولهذا جهّزت حقيبتي بالعزيمة والتّفاؤل، في هـذه المـرّة سيكون الاعتراف واضحـًا ولن يعرقله أي شيء.

كان الكلام الذي سأقوله واضحـًا

" فكّرت مليـًا بتلك المشاعر يا مانيسا ووجدت أن مـا يجلس في داخلي هو حبّك لا غير"

وبعدها سأنتظر الإجابة، قد تقول نعم وأنا أحبّك...وهذا ما كنت أرجوه

أو ربّما تقول لا يمكن أن نكون بهذه الصّفة...

ربّما تصمت..

ربّما تغادر..

أيّاً كانت الإجابة فلتكن، ولكن يجب القول أولاً.

الرّابعة عصراً من اليوم التّالي و مازال الإصرار بالاعتراف كبيراً، اتّصلت بمانيسا ولكنّها لم تجب، ربّما نائمة أو في مكان بعيد عن الهاتف، اتّصلت مرّة أخرىٰ ولكنّها لم تجب أيضاً، انتظرت نصف ساعة وأعدت الاتصال ولكن أيضاً لا يوجد إجابة.

ما الذي حصل؟

أرسلت رسالة علّها تراها وتعاود الاتصال، حاولت إلهاء نفسي بشيء ريثما يأتي ردّ ما منها، دخلت إلىٰ مطبخي وجهّزت طعاماً ولا يوجد بعد أي ردّ، إنّها الثّامنة ولم يأتِ أيّ ردّ بعد، ماذا أفعل الآن ؟! عاودت الاتصال ولكن لا يوجد إجابة، فكّرت بالاتّصال ببشير ولكنّه كان في عمل مكثف في مكتبه.

بدأ الّصبر ينفذ، ولكن ما الذي استطيع فعله؟

وأخيراً جاءت جرعة المهدئ عند التّاسعة وعشر دقائق عندما رنّ هاتفي باسمها، أجبت بسرعة وأخبرتني بأنّ والدها قد أصابه التّعب فجأة ونقلوه إلىٰ المشفىٰ وقد سافرت إليهم ولم تستطيع

الإجابة لأنّ هاتفها كان مغلق وهي في انشغال مع أبيها، تمنّيت له الشّفاء وأوصيتها بنفسها وأغلقت.

ماذا أفعل الآن؟

لا يمكنني إخبارها الآن من أجل مصابهم، وأيضاً لا يمكن أن يكون اعتراف من هذا النّوع على الهاتف، لابدّ من تدخّل لغة العينين ضمن الاعترافات لتلقي بعضاً من كلماتها.

ماذا أفعل إنّه القدر أقوى من كلّ عزائمنا، لا بئس ربّما لم يحن الوقت

يجب التّريّث قليلاً، ربّما كانت هذه إشارة السّماء لي لكي أعيد التّفكير من جديد، شغّلت ألحان نجاة وجلست مع سيجارتي في سهرتي.

ها قد مرّ يومين وحطب الشّوق يحرقني لساعات ويخمد مع صوتها بمكالمات لدقائق قليلة، إلى متى سنبقى على هذه الحالة يا ملاك المطر، احتاج لجرعة من عينيك الخضراوين و ولاستراحة طويلة بجانبك، أشتاق لذاك الشّعر الذي يتطاير في الهواء فيلمس وجهي ويتناثر عطره في كلّ الأرجاء، أشتاق لساعات المشي بين زحام النّاس والضّحكات والمحادثات، للأكل على أرصفة الطّرقات، لنظرات الوداع عند المساء، أشتاق يا ملاك المطر فأسعفيني وإلّا احترقت.

انتهت مكالمتي الآن مع مانيسا عند السّاعة العاشرة، حاولت النّوم لكنّني لم استطع، أخذت قلمي و أوراقي لأكتب أيّ شيء ولكنّ

الكلمات كانت متناقضة ومبعثرة كأفكاري، جلست أتأمّل وإذ بهاتفي يرن، إنّها السّاعة الواحدة والنّصف بعد منتصف الليل تقريباً ماذا هناك؟ إنّها مانيسا، للحظة اعتقدت أنّ مكروهاً قد حصل، أجبت فقالت أنّها لا تستطيع النّوم وتريد إخباري بشيء وستغلق بعدها، قلت: وأنا لم أنم أخبريني ما تشائين ولا تغلقي إن أردت.

قالت: لا أعرف ما الذي حصل ولكن يبدو أنّ الشّوق قد طغىٰ علىٰ كلّ شيء لديّ ولم أستطع التّحمّل فأردت أن أقول لك تصبح علىٰ خير.

- أغلقت المكالمة، لم أغلقت ألا تريدين سماع إجابتي؟
- وماذا عن الشّوق الذي أصبح أكواماً متراكمة؟
- ماذا عن السّهر مع صورتك وذكرياتك؟
- ماذا عن صوتك المحبوس في سمعي؟
- ترىٰ هل تكفي كلمة شوق لكلّ هذا؟

أرسلت رسالة لها وكتبت فيها أنّي أشتاق لكلّ التّفاصيل التي كنّا نعيشها متىٰ تعودين؟

أجابت برسالة أخرىٰ: لن تطول بعد يومين سأكون هناك.

سيمرّان ولكن ببطء شديد، فكلّما انتظرت مجيء شيء شعرت وكأنّ الوقت يمضي بسرعة السّلحفاة، و كلّما تغافلت عنه سعا خلفي مسرعاً، ولكن كانت تلك الكلمات كفيلة لتعطيني الشّجاعة بالحديث معها والاعتراف بحبّها، أردت أن أكون أوّل من تراه عند نزولها من

الحافلة لهذا خطّطت لانتظار مجيئها و للأماكن التي سنذهب إليها والوجبات التي سنأكلها وكلّ التّفاصيل معها، وأمضيت اليومين أجلس واتخيّل نفسي أقف أمامها وأقول لها :أنا أحبّك فتبتسم وترتفع مقلتيها وتعصر الجمال من عينيها وتقول: وأنا أحبّك.

تبقّىٰ ساعة علىٰ وصولها، ارتديت ثيابي وأخذت أغراضي و ذهبت لمكان الوصول، كانت كلّما تقف حافلة أظنّ أنّها بداخلها ولكن أخطئ الظّن، بعد أربع حافلات نزلت مانيسا تلبس فستانًا سماويًّا ينثر علىٰ جسدها المنحوت لون السّماء، بدأت عصافير الفرح تلّحن من حولي وتطربني في كلّ خطوة تخطوها نحوي، وعندما صارت بجانبي نظرت في عينيها فنسيت السلّام ونسيت اسمي، وبعد ابتسامة قالت: كيف حالك؟ قلت: الآن بأفضل حال

قالت: وأنا كذلك، سألت عن حال والدها وكيف تركته، صعدنا السّيّارة وذهبنا إلىٰ الحديقة والشّوارع التي ارتسمت علىٰ جوانبها أيّامنا، أردت أن أخبرها ولكن شوقي لها في هذه اللّحظة وفي هذا المكان كان أقوىٰ من كلامي، حدّثتني عن كلّ التّفاصيل التي قضتها هناك، و عن الشّوق لي وللمكان ولكلّ التّفاصيل وكأنّها كانت تقرأ مذكّراتي وقتها، أردت أن أوصلها اليوم ومن أجل أن أعترف لها حاولت مراراً البدء بالحديث وكانت تقاطعني بالحديث عن أمور الذّكريات، لقد وصلنا ولم أخبرها ماذا أفعل يجب اخبارها، أرادت النّزول من السّيّارة فناديتها، قائلاً يجب التّحدّث الآن

قالت: أنا متعبة كثيراً من السّفر والمشي ألا يمكن التّأجيل ؟

قلت: لا يمكن، عليك أن تعرفي أنّني سمعت صوت قلبي كثيراً ووجدت أنّه يخفي بين ثناياه شيئًا لك.

و عندما التقينا قالت: أهذا ما سنتحدّث عنه! أنا أعلم ألسنا أصدقاء يا إبراهيم ؟

قلت: بلىٰ ولكنّني أحبّك يا مانيسا

تغيّر لونها وقالت متعجّبة: ماذا قلت؟

أجبتها: لقد قلت أنّي أحبّك يا مانيسا

أبعدت ناظراها عنّي وكأنّني قد قتلتها بكلمتي، فتحت الباب وخرجت، ناديتها ولكنّها لم تلتفت.

ماذا فعلت أنا؟

ذهبت والغضب من نفسي يزداد مع كلّ قلبة عجلة، وصلت إلىٰ البيت أغلقت هاتفي وجلست أمام نفسي أتساءل

- لماذا حدث هذا؟
- ألم تبدي كلّ علامات القبول من قبل؟
- هل تناثرت الأشلاء الآن؟
- كيف أجيب ومانيسا ليست معي؟

فتحت هاتفي واتّصلت بها علّي ألقىٰ منها كلمة واحدة تواسيني أو تترجم لي كلمة لأجيب عن اسئلتي ولكنّها لم تجب، أغلقته مرّة أخرىٰ.

كان لا يجب البوح بمثل هذا، ها قد دست علىٰ اللّغم فتناثرت من جديد بعد أن جمعت تفاصيلها.

ولكن لماذا أبدت ردّة الفعل تلك، ما الذي أغضبها لهذا الحدّ؟

ترىٰ هل سنلتقي مرّة أخرىٰ لأعرف الإجابة ؟

لا أعــرف، أطفــأت الأضــواء و حاولــت النّــوم ولكنّنــي كــالمحبوس في تابوتــه حيّــًا، لا أســتطيع الخــروج ولا أســتطيع البقاء فماذا أفعل؟

بدأت الأيّام تعاد من جديد لا فرحة لا ضحكة لا مانيسا لا شيء سوىٰ عتمة اللّيل مع الوحدة و السّجائر، عن ماذا أكتب؟

- عن تناثري؟

- عن خطئي؟

- أم عن ذنب اقترفه قلبي؟

- ماذا فعلت حتّىٰ أستحقّ كلّ هذا؟

_لقد أحببت، حلمت بأيّام بيضاء ترتسم فيها ضحكاتك

- أيام تمرّ بجمال عينيك وخديك

- أيام تمرّ ونحن معًا بين تلك الجموع ولكنّنا وحدنا

- في كلّ مّرة أظنّ أنّي قد وصلت لنهاية هذا النّفق لأجد نفسي قد دخلت في نفق جديد.

- كيف أتخلّص من كلّ هذه الأخطاء النّاتجة عن خفقان هذا القلب وهو يقول أنّه قد أحبّ؟

- يتوب ليوم أو شهر أو سنة أو ثلاث ولكن يوم الكفر فيه واضح لا مهرب منه.

– لن يتوب هذا القلب عن الحبّ حتّىٰ يتوقّف يوماً ما فماذا أفعل؟

– كيف أجرّده من حلمه؟

_كيف أتخلّص من الإحساس؟

_كيف نحتفظ بمسافة الصّداقة دون الدّخول لنار الحبّ؟

_كيف أخرج من سبيل الحبّ والتزم سبيل السلّام؟

– ولكن قلبي يرفض السّلام إذ رأىٰ في الحياة حبّاً

– أين أنت يا مانيسا من هذه الحكاية؟

– من سيجيبني وقد ضعتي في متاهة الغضب؟

– ها قد مرّ أسبوع ولم أروي عطش قلبي بصوتك فمن سيرويه؟

– أتساءل عمّا حدث بذلك الشّوق؟، كيف خمد في لحظة؟

– عن الضّحكات والأيّام كيف احترقت بلحظة؟

في عتمة الغرفة أجلس وإذ بصوت قلبي يتحدّث ويقول:

لماذا كلّ هذا؟

لقد كنّا نتوقّع الكثير من الإجابات وما حصل واحد من تلك التّوقعات، وما أدراك أنّها اعتزلتك أو تركتك، لـمَ ما ذنبك أنت إن كنت قد أحببت؟! هدّء من حزنك قليلاً واستجمع بقاياك وتفاءل بشيء، لعلّها تحتاج بعضاً من الوقت، ربّما كان اختفاؤها حدث يثير الشّكوك ولكن كلّ منّا يخطئ، لعلّ ذلك الاختفاء يأتيك بنبأ سارّ، أنسيت قصّة النّبيّ يوسف.

لا عليك إن كانت تحبّك ستأتي، وإن كانت تعزك ستأتي أيضـًا.

وإن لم تأتِ فلا مكان لها في هذه الحياة بيني وبينك.

أتتخلّىٰ عنّي وقد رافقتك لسنين عدّة؟

ألم تقل أنّ كلّ ما يحدث مع الإنسان لخير وليصل إلىٰ الطّريق الصّحيح؟

أين أنت من كلّ كلامك ؟

قم يا صديقي وأغلق مفتاح الحزن

قم وأذق بعضـًا منّي ومن جسدك طعم النّوم.

سيمضي كلّ شيء لا تحزن.

استمعت إليه ونمت، وفي اليوم الآخر حاولت أن أعيد سيرتي الأولىٰ وألهي نفسي بالطّبخ واللّحن والقراءة، ولكن شيء مني لن ينسىٰ بتلك السّهولة.

في الصّباح التّالي استيقظت علىٰ طرق الباب، من سيكون لابدّ أنّه أحد المتسوّلين.

كان الأرق قد أكل شيئـًا من ملامح وجهي بالذّقن والشّعر الطّويل، فتحت الباب ولكن لم أستوعب ذاك المشهد أغلقت عيني وفتحتها مراراً وتكراراً لكنّني لا أحلم إنّها مانيسا حقـًا، كان خدّيها شاحبين وعيناها قد ذبلت وكأن موتـًا قد زارها، قلت لها :أهلاً مانيسا تفضّلي دخلت إلىٰ كهفي المعبّأ برائحة السّجائر والأركان المليئة

بالفوضىٰ حتّىٰ أنّها ضحكت وقالت: كيف تعيش هنا!؟ أجبتها: أتعايش.

حضّرت القهوة لي ولها وجلسنا صامتين، ثمّ قالت: ما بك ما الذي حصل، أجبت كلّ ما حصل تعرفينه، ولكن ما الذي حصل لك أنت!؟

قالت ألم تقرأ الرّسالة التي أرسلتها في ليلة ذاك اليوم الذي قلت فيه أنّك تحبّني ؟

لا، دعيني أرىٰ فهاتفي مغلق منذ ذلك الحين، فتحته واذ بها تقول لي: لا تحزن أنا أفكر وسأجيبك بعد مدّة.

قالت: حاولت الوصول إليك لكنّ هاتفك مغلق، وفي الأمس قرّرت المجيء فأخذت العنوان من بشير، أمضيت كلّ ذاك الوقت محاولة ترجمة كلّ تلك المشاعر التي تأتيني معك وفي غيابك.

قلت: وإلىٰ ماذا وصلتي؟

قالت: اكتشفت أنّ ذاك الكلام الذي قلته قد وصل إليك قبل أن يصل إليّ.

سألتها بين متفاجئ وفرح: أتقصدين أنّك تحبّينني ؟

قالت: أجل أنا أحبّك منذ ذاك اليوم الذي سألتك به من أنت ولكنّني لم أدرك الأمر.

صرخت من الفرح، لم أعد أعرف أيّة كلمة أقول أو أيّ شيء أفعل، أعانقها أم أقبّلها أم أرميها كطفلة صغيرة في سماء غرفتي.

لقد أحبّتني حقـًا، أتدرون ربّما كان عليّ عيش ذاك الوقت الحزين لأشعر بهذه الفرحة التي ربّما لم أكن سأشعر بها لو قبلت دون هذا الحزن، ولكن لا يهم الآن ما ذاك الحزن وما تلك المعاناة، المهمّ الآن أنّي ومانيسا قد أصبحنا طيرين في فضاء العشّاق.

[الفصل ١٣] طيور الحبّ

كالحلم باتت أيّامنا و كالرّبيع
في الحبّ عشنا بعد انتظار طويل
جاءت أميرتي مع القافلة تسير
والتقينا بعد هطول المطر مع الهديل

❋❋❋❋

مصادفة ألقت بقافلتها في وادي الحلم والحنين
فدخلت القصر وليس فيه من خدم إلّا القليل
فرأيتها تتمايل وفي عنقها عقد ثمين
وسلاسل الشّعر الأنعم من الحرير
راية من الجمال دخلت قصري
فأشعلت لها شموعـًا وقمت بالتّرحيب

❋❋❋❋

وبعد أيّام كان الهوىٰ قد أشعل في قلبي الكثير
أردت البوح ولكنّ القدر أجّل التّقييم
فعشت في كوخ الشّوق والحنين
أعيش علىٰ جرعة الصّوت من هاتفي اللّعين
فانتظرت أيّامـًا حتّىٰ يأتي الموعد والتّلاقي الجميل

❋❋❋❋

وذهبت إليها وأدليت بالحبّ الكبير
فتغيّر اللّون وخرج البرق من عينها مريب
فظننت أنّي قد قلت كلامي الأخير
وفي الحياة كان يومي الأخير

❋❋❋❋

عشت النّدامة والكآبة في فترة اللّيل والنّهار القصير
حتّىٰ جاء الطّارق المبشّر والطّبيب
جاءت أميرتي وقالت إنّني في حبّك أعيش
وكنت أنظر في وجهك وأشعر بالأمن والفرح المديد
فتبسمت أضلعي وتراقصت وعادت إلىٰ الحياة من جديد

❋❋❋❋

هـذه كلمـاتي التـي كتبتهـا بعـد أن زرعـت الحيـاة في صـدري وغادرت.

كانت الفرحة غريبة بعض الشّيء أو ربّما كانت الفرحة الأولىٰ، فأنا أذكر تلك البسمة التي انسكبت علىٰ وجهي، وصوت الأغاني الشّعبيّة التي سبّبت ضجيج المبنىٰ وأنا أتراقص من غرفة إلىٰ أخرىٰ وأتوقّف وأمشي مع اللّحن وكأن الاتّزان من عقلي سقط، أترون كم أنّ تلك الكلمة المؤلفة من ثلاثة أحرف "حبّ " قد غيّرت موازين الحياة من جديد، فبعد أن عشت في الأحلام وبين أشطر الكلمات، فاقداً

الكثير من الأمل، ها قد تحقّق يا أصدقاء لقد طرق الحبّ بابي وكثرت ابتساماتي ووصلت نشوة روحي لقمتها.

أوّل لقاء مع مانيسا، أي أوّل لقاء حبّ بيننا في ذات الحديقة وعلىٰ ذات الكرسيّ، كان الارتباك والتّلعثم بالكلام حليفي في هذا اللّقاء، لقد التقيت مانيسا كثيراً من قبل، لكن لا أعلم ما الذي يجب فعله بعد أن أصبحنا حبيبين، تحدّثنا قليلاً عن الذي حصل وضحكنا، أيعقل أن نكون عشنا الحبّ لأيّام دون علمنا، كانت لمعة عينيها المعتادة تنطق أحرف الغرام وفي حين كنت أنظر إليها قالت: لديك عينان جميلتان.

قلت: وماذا عن عينيك ؟

قالت: ما بهما ؟

قلت: فيها سحر يعلّقني بك أكثر فأكثر، ولون سرق من غابات تركيا

تبسّمت و أدارت وجهها خجلاً وازدادت فتنة، فقلت متقصّداً زيادة خجلها :

وخدّاك في كلّ مرّة تلقين عليها احمرار الخجل يصبحان كحبّة المشمش من بساتين الجبل.

قالت: يكفيني من سكّر كلامك اليوم وإلّا سأذوب في مجلسي هذا.

ما أشهىٰ تلك الكلمات التي تقولينها يا مانيسا، وما الذي ألقاني بعد عينيك في جنّة حبّك إلّا طريقة كلامك، قمنا لشوارعنا نتمشّىٰ وبعدها جلسنا علىٰ حافة الطّريق بعد أن جلبنا طعامنا، وبعدها

أخرجت دفترها وكتبت شيئًا ولكن كما المعتاد لا قراءة إلّا بعد الفراق لقد اعتدت علىٰ هذا.

بماذا أتحدّث معها؟

ما هذا الصّمت الذي نزل فينا، أسرق الحبّ منّا الكلام؟

ليس مهمّا ففي كلّ مرّة كانت تنظر إليّ كنت أسمع سطوراً منها،

أثناء الوداع أعطتني رسالتها لليوم، همّت بالرّحيل لكنّني استوقفتها، نظرت في عينيها للحظة وقلت: أحبّك أكثر من أيّ شيء

قالت: وأنا أحبّك أكثر من قدر حبّك لي وذهبت...

وصلت إلي المنزل وعلىٰ أريكتي فتحت تلك الرّسالة

"غريب ثمّ صديق لجاري ثمّ رفيق درب ثمّ صديق ثمّ أعزّ من أخ والآن حبيبي، معادلة تمّت خلال بضعة أيّام، معادلة سماويّة كانت تجزم الحبّ بيننا، وفي أوّل يوم لنا الآن أقول أنّي أحبّك وأسمع مغازلتك، أحبّك يا إبراهيم حبّاً قلبيّاً وحبّاً حبّاً سماويّاً"

حقّاً مانيسا لقد التقينا بعد كلّ هذا بمعادلة سماويّة، كنت مؤمناً أنّي سأكون طرفاً فيها يوماً ما، أتذكرين تلك القصيدة التي قرأتها عندما شربنا القهوة، كانت تتحدّث عنك، أتعرفين يا حبيبتي لم يقرأها أحدا سواي غيرك أنت، وكأنّ الأقدار تكاتفت لتكون بيدك وتعرفين كم كانت اللّهفة كبيرة للقياك، وها نحن الآن طيور في الحبّ نغرّد عشقاً وفرحاً، في المساء نطير معاً وفي اللّيل حتّىٰ الّصباح حديث علىٰ الهاتف لا ينقضي إلا وزرع فينا من الشّوق أكوام.

قرّرنا في عطلة الأسبوع هذه أن نذهب لزيارة علي وريتا، وفي أثناء الطّريق صادفنا حوضاً أمام إحدىٰ محال المجوهرات يحوي أزهار التّوليب، قفزت مانيساَ وبدأت بتصويرها و لمسها قائلةً: أنا أعشق هذا النّوع من الأزهار، قلت: ألن تنتهي عن تصرّفاتك الطّفوليّة هذه انظري إلىٰ صاحب المحلّ إنّه ينظر إلينا هيّا، قالت: ماذا فعلت أنا أحبّ زهرة التّوليب هذه وأنت ماذا تحبّ من الأزهار ؟ أجبت أحبّ الأقحوان الذي يشبهك بجماله البسيط السّاحر، ضحكت خجلاً وقالت: هيّا سنتأخّر علىٰ موعدنا مع علي وريتا أسرع.

أمضينا الوقت معهما وكان ينظران إلينا باستغراب، كنّا نتبادل الكلام بسريّة ونضحك فجأة، دخلت مانيسا وريتا إلىٰ المطبخ فقفز عليّ إلىٰ جانبي

قال ما هذا ما الذي يحصل!؟

قلت ماذا يحصل؟!!

قال أنت ومانيسا ما هذه الحالة؟

قلت ألم أخبرك؟ أنا ومانيسا قد أصبحنا عاشقين

صرخ عليّ: ريتا تعالي واسمعي تعالي، جاءتا ومانيسا تشير بيديها من خلف ريتا ماذا حصل؟ أشرت لها بأنّي لا أعرف، قال عليّ نحن هنا رفاق منذ زمن والأستاذ إبراهيم قد أشعل قلبه أخيراً وأحبّ مانيسا لكن لم يخبرنا.

نظرت ريتا إليّ وإلىٰ مانيسا وقالت: أحقّا؟ قلت: حقّا، كعادتها ريتا بدأت بالغزل والمباركة والقبلات.

أتعرفون جميل أن يكون لأحدنا أصدقاء يشاركهم أشياءه ويرىٰ تلك الفرحة التي تغفو علىٰ وجوههم وكأنّك ترىٰ نفسك وفرحتك فيهم.

خرجنا من بيت عليّ عند الثّامنة مساءً، قالت: أريت كم أنهما جميلان؟ لقد أحسنت اختيارهم يا عزيزي، قلت: نعم إنّهما طيّبان، ثمّ سألتها: هل ستذهبين إلىٰ البيت حالاً، قالت: ربّما، ماذا تريد أنت؟

قلت: كنت أفكّر أنّ نقضي بعض الوقت معـًا، قالت: وأنا موافقة تفضّل يا عزيزي.

كانت ليلة تزاحمت فيها النّجوم، جلنا الكثير من الشّوارع، وشربنا القهوة عند الرّجل المسنّ علىٰ زاوية الطّريق، كان لصمتها طوال الطّريق شيء يثير الجدل في داخلي عمّا يجول في عقلها، دخلنا ذاك الشّارع المنحوت في شوارع دمشق القديمة وتحت ياسمينة تدلّت علىٰ جانب الطّريق لتلقي روائحها الزّكيّة، جلسنا كعصفورين طليقين تضربنا نسمات الهواء الرّقيقة ثمّ فكّ الصّمت قيدها و سألتني:

_في أيّ شطّ سيرسو زورقنا؟

لم أعرف بماذا أجيب، كان صمتـًا لدقيقتين أو أكثر، ثمّ قلت: في شاطئ القدر، لا تخافي كما دبّر اللّه لقاءنا سيدبّر أيّامنا.

مرّ شهر على بدء هذه العلاقة، كان التّفاهم بيننا جيّداً خرجنا سويّاً وتحدّثنا طويلاً ضحكنا وفعلنا كلّ شيء ولكن لم نبدأ بشيء بعد.

في يوم كنت قد انشغلت في نهاره في العمل أرسلت رسالة لمانيسا أخبرها أنّي سأكون مشغول اعذريني حبيبتي، جلست على طاولتي وأشعلت سيجارتي وكان لا بدّ من الاتّصال بمانيسا واذ بهاتفي يرنّ برسالة مانيسا قالت فيها:

"أيا ضحكة الأقحوان زدني من سكّر كلامك مزاجي مرّ"

فكتبت لها قولي :

وجاءت عزيزتي على كتفي وقالت
المرّ في مزاجي كثر
فدع فيه القليل من السّكر
لعلّي أكون به أصبحت القمر

❋❋❋❋

نظرت واذ بالعيون الخضر،
قد لمعت من حزنٍ ومزاج عكر
الخدّين ذبلا والفم قد عبس
فقلت: ليت العيون تأخذ قلبي
وتمحو منها لمحة الحزن
وتدور في أرجاء البيت على أصوات اللّحن

❋❋❋❋

ترقصين فيتمايل شعرك كسنابل هذا الزّمن
ويتضرّج خديك كلما قلت لك حنّي عليّ فإنّي
في إقليم خدّيك تائه وليس معي إلّا الخطر
فسأغرق في شاطئ الشّفتين
و أقتل بسيوف الرّمشين
واتسلّق لسنين علىٰ الجفنين
حتّىٰ أبني كوخي الصّغير بين الحاجبين

❋❋❋❋

وفي يوم أتت مانيسا إلىٰ بيتي كان مليئاٍ بالفوضىٰ وبدأت صراخاً "ما هذا كيف تعيش أنت هنا"، "أليس لديك وقت لترتيب هذا" "كيف سأتحمّل العيش معك في هذه الفوضىٰ "

ثمّ صمتت وبدأت تقلّب نظرها بين السّقف والأرض وتعضّ علىٰ شفتيها وكأنّها قد باحت بسرّ عاش فيها لوقت طويل، لم أرد ازعاجها فتظاهرت بمرور ذلك الموقف بشيء عاديّ ضحكت بصوت عالي وقلت ذكرتني بأمّي عندما كنت أنا وأخي نقيم في الغرفة ونرفض ترتيبها لأنّنا كنّا نقضي كلّ الوقت في المكان ذاته، سأحضّر القهوة لنشربها سويّاً، كانت مانيسا تتمتم كلاماً وتشير بيديها وكأنّها فقدت عقلها، جلست علىٰ الشّرفة وناديتها فجاءت فإذا بها تصادف تلك الزّهرة التي جلبتها منذ فترة عندما قالت أنّها تحبّ التّوليب ووضعتها بجانب الأقحوان خاصّتي، بدأت تتأمّلها وتقول: ما هذا! لم

تقل أنّك تملك زهرة التّوليب هنا، قلت: جلبتها منذ فترة قصيرة لأنّك تحبينها.

بعدها أعددت بعض الطّعام لنا و رافقتني مانيسا أثناء ذلك و كلّ ما كانت تقوم به هو النّظر إليّ وسرقة تركيزي، تناولنا الطّعام وفيها شيء من الارتباك لما قالته عند مجيئها، لكنّها أثنت على الطّعام الذي أعددته، ثمّ رتّبت المطبخ وبعدها ذهبت لمسكنها.

جلست أفكّر في قولها بأن نعيش في بيت واحد وأربطه بسؤالها ذاك " في أي شطّ سيرسو زورقنا؟"

يبدو الجواب واضحاً بعض الشّيء سيرسو في مرفأ الزّواج، في العيش في بيت واحد

لكن ماذا عن زورق الحبّ خاصّتنا؟

هل سينتهي حبّنا؟

لا، الزّواج ليس نهاية الحبّ، فالحبّ لا ينتهي وقد قلتها من ذي قبل؛ الزّواج هو مرحلة استقرار الحبّ.

الحبّ ثمّ الزّواج، أشبه بالعيش على أمواج القدر في زورق الحبّ الذي تضربه الأمواج وتصفعه الرّياح فتأخذه يميناً ويساراً وتهدّد من عليه بالغرق في البحر، و كلّما كان ذاك الزّورق متين كانت الرّحلة أطول، حتى يصل ذاك الزّورق إلى شاطئ جزيرة الحبّ والتي تكلّل بالزّواج، فينتقلا للعيش فيها إلى الأبد دون الخوف من الأمواج والرّياح.

قرّرت الانتقال إلى الجزيرة، أخذت هاتفي واتّصلت بمانيسا، أيقظتها من نومها كان يبدو ذلك من صوتها،

بدأت بقول مانيسا أنا...

ماذا أقول هل أنا غبيّ لأخبرها بهذا الشّكل السّاذج

قالت ما الذي حصل ما بك؟

قلت لا شيء ولكنّني اشتقت إليك كثيراً، فأردت سماع صوتك هيّا عودي لنومك نلتقي في الغد.

عدت لجلسة التّفكير خاصّتي و بدأت أتساءل ماذا أفعل كيف سأخبرها؟

فكّرت بالكثير من الأشياء، ولكن بدا لي أنّ بعضها أفكار مراهقين

والبعض الآخر أفكار لا تليق بها.

إنّها السّادسة صباحًا، لقد شربت علبتي سجائر حتّىٰ الصّباح ولم أعرف ماذا أفعل، اتّصلت بعليّ وطلبت منه المجيء، تذمّر قليلاً بقوله: هل يتّصل أحد في هذا الوقت، ماذا حصل لعقلك يا صديقي!؟ ولكنّه قال أنّه سيأتي، أعددت قهوة ليذهب النّعاس من عينيّ وجلست علىٰ الشّرفة أنتظر قدوم صديقي عليّ.

[الفصل ١٤] إلى جزيرة الحب

أخيراً بعد انتظار طويل جاء عليّ، دخل وقال: ما بك ماذا حصل هنا ؟ قلت: ادخل إلىٰ الشّرفة سأجلب فنجاناً لك، أخبرته بأنّني أريد عرض الزّواج علىٰ مانيسا لكن لا أعرف كيف سأفعلها، قال: كيف ستفعلها ستلاقيها وتتحدّث معها بكلّ ما يجول في ذهنك بكلّ بساطة.

أتقصد أن يكون العرض بسيطاً دون مقدّمات ولا مفاجئات ولا أيّ شيء؟

قال: تماما فلديك الكثير من الأمور التي ستفعلها، ولا تنسىٰ أهلها عليك الذّهاب وطلبها منهم، فهم لا يخرجون عن العادات وإلّا جاءتك المصائب من حيث لا تعلم.

فهمت عليك اذاً سأتكلّم مع مانيسا وأخبرها بالذي أريد ثمّ سأبدأ التّجهيز ولا تنسىٰ ستكون مستعدّاً معي.

قال: لا عليك أنت قرّر موعد زواجك وأنا سأكون معك دوماً.

إنّ عليّ محقّ، فكيف سيكون عرض الزّواج إلّا استشارة، وبعدها سندخل في مراسم العادات، ولكن لا بدّ أن يكون مكان العرض مكاناً خاصّاً يجمعنا نحن الاثنين في ذكرىٰ خاصّة.

أين هذا المكان يا ترىٰ؟. سأفكّر به لاحقاً

غادرنا إلىٰ أعمالنا، وبعد الظّهيرة اتّصلت بمانيسا وأخبرتها بأنّني سأمرّ لأخذها عند الرّابعة عصراً.

أخذت أغراضي وذهبت إلىٰ البيت، بحثت عن بعض الأوراق و وضعتها في حقيبة اليد، وبعد الاستحمام خرجت لأخذها، إلىٰ ذاك

الشّارع الذي وصفته من قبل في دمشق القديمة وتحت تلك الياسمينة جلسنا ثانية، أعطيتها أوّل ورقة

قالت: ما هذه، أليست القصيدة التي كتبتها منذ زمن بعيد في وصف الفتاة التي ستحبّها وتنتظرها ؟

قلت بلىٰ و هي الآن أصبحت لك فأنت هي الفتاة لا شكّ في هذا.

وبعدها أعطيتها تلك الرّسالة التي كتبتها في أوّل مرّة ترافقنا فيها في دمشق.

نظرت إليها، كان في ملامح وجهها فرح الانتصار إذ أنّها فازت بحبّي واكتسبت حروفي وحتّىٰ ذكرياتي.

قلت لها: أتذكرين سؤالك في أي شطّ سيرسو زورقنا؟

قالت: طبعـًا أذكر

قلت: لقد حان الوقت لأن أجيب عليه وأن يرسو ذاك الزّورق

قالت متعجّبة: ماذا تقصد بكلامك هذا؟ لم أفهم.

قلت: أي نتزوّج إن كنتي تقبلين، وهكذا يكون زورقنا قد رسا في جزيرة الحب.

أصابها الجمود للحظات وقالت: أعد ما قلته هل سنتزوّج أنا و أنت؟

قلت: أجل وأين المشكلة في هذا ألا نحبّ بعضنا ؟ يكفينا انتظار تلك السّنين، أريد أن تتحمّلي تلك الفوضىٰ في منزلي، وأن أغفو علىٰ محادثتك وأنت بجانبي لا علىٰ هاتفي.

كانت ملامح وجهها تقول بأنّها مصدومة لكنّ لمعة الفرح في عينها، تلك اللّمعة التي أحفظها كانت موجودة وهي التي أراحت قلبي وعرفت أنّ الموافقة جوابها، ثمّ غادرت مسرعة وقالت: سأتحدّث معك في المساء، الآن يجب عليّ الذّهاب لديّ بعض الدّراسة التي يجب إنجازها قبل هذه المرحلة.

يا لهذه الفتاة المجنونة كم أحبّها، إلىٰ أين أذهب الآن؟

هيا سأذهب إلىٰ عليّ وأخبره بما حصل، و عندما وصلت وجدت بشير هناك أيضـًا،

فقلت: جميل سأحدّثكم عمّا حصل سويّـًا، أخبرتهم بكلّ شيء وبالموافقة التي أعطتها مانيسا وطلبت منهم أن يكونوا جاهزين للذّهاب معي، كما تعلمون لا أحد معي غيرهم، قال بشير: نحن جاهزون ولا تخف سيكون والداي معنا فهما في عطلة هناك، ولكن متىٰ سنذهب؟

قلت لا أعلم سأخبركم لاحقا، كان الجميع يضحك ويمزح ويقول وأخيراً شاعرنا العظيم سيدخل القفص الذّهبيّ.

أتعرفون أنا أكره تلك الجملة، ماذا يعني دخولي القفص الذّهبيّ أليس القفص هو سجن؟، وإن كان ذهبيّـًا بالنّهاية هو قفص يأسر الحريّة، أمّا الزّواج لا يتّصف بأيّ شيء من أسر الحريّة إن كان الزّوجين متفاهمين وأدّىٰ كلّ منهما واجباته كما أخذا حقوقهما، معادلة بسيطة يستصعبها الكثير ٬ لا أعلم لماذا يرونها صعبة جداً وأراها بهذه البساطة.

ذهبت إلىٰ بيتي و جلست أنتظر مكالمة مانيسا التي ستكون مليئة بالمخطّطات، أثناء ذلك قرّرت أن أتّصل بسامر، لا بدّ أن أتشارك هذه الفرحة مع صديق الطّفولة، وفعلاً و بالرّغم من كلّ تلك السّنين لكن الفرحة بذاك الخبر كانت مزروعة في صوته، أغلقت الهاتف وإذ بمانيسا تتّصل، وقبل أن أقول كلمة بدأت الأسئلة؛ مع من تتكلّم كلّ هذا الوقت وفي ماذا. إنّها الغيرة يا أصدقائي أجمل شيء في الحبّ إن كانت في مكانها المناسب، أخبرتها بأنّ عليّ وريتا وبشير وعائلته سيذهبون معي لطلبها من أهلها، قالت: أهلي؟!! ولكنّني لم أخبرهم بعد كيف سأخبرهم بمثل هذا، قلت: لا أعلم ولكن عليك اخبارهم في صباح الغد بأنّنا سنكون هناك الجمعة القادمة وبعدها سنبدأ التّحضير، لا أريد أن يطول هذا أريد أن تكوني هنا في غضون شهر.

إنّه اليوم الذي أنتظره، أجلس في بيت مانيسا لأتقدّم لخطبتها من والديها، جلبت مانيسا القهوة وقد تزيّن بها فستانها الأزرق، وكانت عيناها تشعّ فرحـًا، وفي بسمتها سحر كنت قد أدمنته منذ زمن، بدأ العمّ أبو بشير بالحديث وكما هو المعتاد سنتلقىٰ الإجابة بعد مدّة قصيرة، لابدّ أنّ الإجابة هي القبول.

سنقيم في القرية لبضعة أيّام، في المساء خرجت إلىٰ المكان ذاته الذي جلست فيه مع مانيسا أتذكّر أوّل مرّة التقينا فيها، وكيف مرّت كلّ تلك التّفاصيل بهذه السّرعة، لقد أتيت لهذا المكان للتّنزّه والتّرفيه عن نفسي مع الأصدقاء، واليوم أنا هنا لأخذ الحبّ الذي كان ينتظرني منذ زمن، جاءت مانيسا وقد كان الشّرود حليفي، أشارت لي ولكنّ

الشّرود قد أفقدني حواسي، وبعدها قالت: لم أعلم أنّ وجودي قد غيّرك لهذه الدّرجة ما لذي تفكر به؟

قلت: لا شيء كنت أذكر أوّل ليلة لنا هنا، كم كانت جميلة تلك المصادفة التي ألقتني في حبّك، تبسّمت وقالت: في كلّ مكان أصبح لدينا ذكرىٰ، يبدو أنّك ستشرد طيلة حياتك، سألتها ما الذي قاله أهلها، فأجابت: لن أقول لك ستعرف لاحقًا يا عزيزي هيّا إلىٰ نومك لدينا يوم مليء غداً، وكأنّها كانت إشارة بأنّ القبول في الغد سيأتي.

بقيت طيلة النّهار انتظر تلك اللّحظة التي سيقول فيها العمّ أبو مضر أعطيتك مانيسا، ولكنّها لم تتحقّق اليوم، كتمت ذلك لعلّه في اليوم الآخر، ولكن لا إجابة بعد، بدأت الشّكوك تثيرني سألت مانيسا ولكنّها رفضت الإجابة الأمر الذي زاد من توتّري، خرج بشير وجلس بجانبي وقال: ما الذي حصل لماذا كلّ هذا الغضب، أخبرته فضحك وقال: انتظر قليلاً إنّه أمر طبيعيّ أن يتأخر أسبوع أو أسبوعين حتّىٰ، قلت له: أنا أعلم هذا أتحسبني غبيّ ولكن لماذا قالت مانيسا تلك الجملة لا أعرف؟

قال أهدأ ولا تفكّر في كلّ كلمة تقال إنّك تتعب نفسك، قلت: سأفعل ولكنّك ستخبرني إن عرفت شيئًا، ضحك وقال: سأخبرك لا تخف.

عند ظهيرة اليوم السّادس وبينما نجلس كلّنا طرق باب البيت، خرج بشير ليفتح وإذ به العمّ أبو مضر، دخل وألقىٰ التّحيّة، جلس واستدعاني إلىٰ جانبه، في هذه اللّحظة تصادمت جميع المشاعر

ببعضها الخوف والفرح وغيرهم، قال: لقد جئت مع عمّك أبو بشير وهو بمثابة أخ لي وبما أنّه أثنىٰ عليك يا عزيزي فيمكنني قول هذا لك الآن: مانيسا بكري وعزيزة علىٰ قلبي و قد رأينا بأن نعطيك إياها، لقد كنت أعلم أنّ القبول آت لا محال وأنّ ذاك الشّكّ الذي رافقني في هذه الأيّام مجرد خوف فارغ، ولكن لم أكن أعلم أنّ القبول من فم عمّي ستلقيني في بحر البهجة بهذا الشّكل، قبّلت يده وشكرته، وقطعت وعداً بأن أحيي مانيسا بين الأهداب وقال: يمكنكم المجيء لتلبيس الخواتم متىٰ أردتم، أخبرته بأنّي لا أريد التّأخّر فعيد ميلاد مانيسا بعد ثلاثة أسابيع وأريد أن يكون العرس في اليوم ذاته إن لم يكن لديكم مانع، ضحك وقال: كما تريد يا بني إذاً غداً نلبس الخواتم ونجلب شيخاً ليعقد القران ابدأ بالتّجهيزات حالاً ثمّ غادر، وهنا بدأت الصّدمة بعدما غادر، كان العمّ أبو مضر قد جلب خاتمين لنا وكأنّهم يعلمون كلّ شيء قبلي، حتّىٰ أنّ عليّ وريتا قد اتّصلا بأحد المحالّ و حجزا الضّيافة.

كم هو جميل أن يكون لديك مثل هذه العائلة، تجد نفسك في فرحتهم والتي هي فرحتك أساساً لا يمكنك أن تفكّر بأي همّ معهم لأنّهم سيزيلونه قبل أن تفكّر.

اتّصلت بمانيسا، أخبرتها بما حصل وهي تضحك ، أخبرها بلهفة بكلّ تلك التّفاصيل وهي تضحك، لقد أثارت غضبي فصرخت قائلاً: ماذا هناك لا تقومين بشيء سوىٰ الضّحك، قالت: لا شيء ولكنّني أعلم بكلّ ذلك فقد أخبرني أبي بكلّ شيء، ولتعلم فقد ذهبت أنا وأمّي وجلبت فستاناً و لا تسأل عنه ستراه غداً، إذا ستسرقين النّوم لهذه

اللّيلة أيضـاً وأنا أفكّر بطلّتك غداً، قالت: لا أعلم ولكن مـاذا حضّـرت أنت؟، لم أحضّر شيء سأتركك في فضولك أنا أيضـاً.

السّاعة الخامسة مساءً، أخذت بشير وعلي وذهبنا لشراء شيء لألبسه في هذا اليوم الخاصّ، أذكر أنّي بقيت لساعات أبحث حتّىٰ شبّه بشير الخروج معي كـالخروج مـع النّسـاء، وأخيـراً وجـدتها، سـترة سماويّة مع كنزة بيضاء، جلست طيلة اللّيل أتخيّل ذاك الجمال الـذي سألاقيه غداً، فمانيسا من غير تجمّل سلبت هـذا القلـب مـاذا ستسلب أيضا غداً: ربّما تسلبني كلّي، ماذا جلبت تميمتي لتلبسه ؟...

ما لونه.؟ ما طوله..؟

لا بـدّ وأنّهـا تجلـس مـع فضـولها مثلـي الآن وتتسـاءل، لا تـزال السّـاعة الثّانيـة عشـرة، لتسـرع قلـيلاً أيّهـا الوقـت فصـبري ينفذ.

لقد خابت كلّ التّخيّلات بتصوير هذا الجمال، مهمـا تحدّثت لا يمكنني وصفك يا مانيسا تبدين كأميرة أو ملاك أو حلم، لا أعلـم ففـي ذاك الزّنّار الأبيض الذي عانق خصرك فوق الفستان الأسـود مكشـوف الكتفين لوحة جعلت من تضادّ اللّـونين جمـالاً لا منتهـي، وفي خصـلة الشّـعر المتدليّـة علىٰ عينيـك والبسـمة التـي أطلقتهـا لحظـة ظهـورك تصوير للحوريّات في الجنّة وفي سحر الشّفتين والحسـناء النائمـة علىٰ رقبتـك والعقـد المـتربّص علىٰ صـدرك، مـاذا أفعـل بكـلّ هـذا؟ كيـف أصفها يا عزيزتي.

بعد عقد القران وفي اللّحظة التي كانت تلبسني خاتمي كنت أنظر إليها وفي قلبي الكثير من الصّرخات والجنون الذي يريد أن يخرج من

قفص صدري، نظرت إليّ وضحكت ثمّ قالت: ما هذا الجمود الذي يلبسك اليوم ؟ قلت: خلف هذا الجمود روحًا مجنونة تريد أن تصرخ فرحةً وانبهاراً بما أنا فيه، انتهينا من تلك المراسيم جميعها، تهنئة العائلة والأصدقاء والاحتفال والرّقصات، خرجنا وفي نفسي كنت أقول: لو أقمنا العرس في هذه اللّحظة، لم ينته الحديث واللّقاء فروحي لم ترتوِ من مانيسا اليوم، اتّصلت بها لتخرج ولكنّها رفضت فهي متعبة، وبعدها تذكّرت أنّنا سنغادر في صباح الغد لنبدأ بالتّجهيزات، أطفأت الأضواء وحاولت النّوم مع صورة مانيسا المعلّقة على جدران روحي.

كان لابدّ من الكتابة في هذه اللّيلة ولو كانت رسالة قصيرة ولكن لمن هذه الرّسالة ستكون يا ترى، جلست أتأمّل لمعان النّجوم وتصادم النّسمات مع أوراق الأشجار وكتبت:

شكراً...، شكراً لكم،
شكرا لبشير وعلي وريتا.
شكرا للعائلة الرّحيمة
للزّمن المتمثّل بوجودك يا مانيسا
للون عينك و لنور جفنيك
للخصر المزروع في كوكبك
للحسناء المتزيّنة برقبتك
للشّفتين الشّهيّتين كقرص السّكّر
للخدّين المشرقين كأيّام القمر

شكراً.. للقدر والأيّام والزّمن
للفرحة المغروسة في قلبي
للبسمة المرسومة علىٰ وجهي
شكراً... لكم.. ولها.. ولي
شكراً.

في الصّباح جهّزنا كلّ أمتعتنا وذهبت لأخذ مانيسا و أمّها للبدء بالتّجهيزات، ودّعنا العمّ أبو مضر وخرجنا جميعنا، ستقيم أمّي ومانيسا في بيتي، لم تكن تعرف مانيسا بعد بأنّي سأقيم حفل الزّفاف في يوم ميلادها، ولكنّني أخبرتها بأنّنا نريد العجلة في هذه الأيّام، وكما أردت بعد أسبوعين من الخروج في عالم التّسوّق، انتهت مانيسا من تجهيز أغراضها، وكانت المفاجئة حين استيقظت السّاعة الثّالثة عصراً من قيلولتي علىٰ الأصوات المبعثرة في أرجاء البيت والمبنىٰ كلّه، خرجت من غرفتي أصرخ لأجد البيت في حالة مرعبة، فالكثير من الأثاث هنا، من أين أتىٰ هذا ؟ سئلت مانيسا فقالت: أنظر أمام الباب تعرف، و إذ بعليّ وريتا وبشير هنا، قال بشير: منذ أشهر خططنا سويّاً لمفاجئة علي وريتا واليوم هذه المفاجئة لك، ما عسىٰ لساني أن يبوح في هذه اللّحظة، عانقتهم واحداً واحداً ثمّ دخلنا وجلسنا جميعا نخطّط ليوم الزّفاف، أخبرتهم بتاريخ يوم الزّفاف فنظرت مانيسا بفرح وقالت :هذا يوم ميلادي، قلت أعلم وجميعهم يعلمون أيضاً من ذي قبل، عانقتني بقوّة حتّىٰ أصدرت أمّها صوتها فابتعدت عنّي، واتّفقنا بأن نأخذ المطعم ذاته الذي أقمنا فيه حفل ريتا وعلي، وذهبنا لنجلب

ثياب الحفل جميعاً، كانت كلّما لبست مانيسا ثوباً أراها جميلة فيعارضني أحدهم حتّىٰ لبست ثوباً مكشوف الكتفين وزخرفة الطّيور والفراشات علىٰ الأكمام، وعند الخصر رسمات الورود مزيّنة بقطع لامعة والفتحة التي أظهرت رجليها، وأخيراً ثبتنا علىٰ هذا وأنا قد اخترت واحداً بعد الخيار الثّالث تقريباً.

قضينا الجمعة أنا ومانيسا في انشغال تامّ، ننام في اللّيل كالأموات ولكن هذا لم يكن ليسرق من المتعة في مراقبتها في أغلب الأوقات والنّظر إلىٰ عينيها، كما كانت فرصة للتّعرّف علىٰ رقّة قلب أمّها والتّمتع بحنيّتها، وطعم الأكل من تحت يديها، كانت في كل مّرة ترانا معاً تدعو لنا بالتّوفيق، وأن نبقىٰ مجتمعين هكذا طيلة العمر، و ما كان منّا إلّا أن نقول اللّهم استجب.

لم أر مانيسا منذ خروجها في صباح اليوم إلىٰ صالون الحلاقة، كان يجب تجهيز بعض الأمور مع الأصدقاء ذهبنا إلىٰ الحلّاق و بعدها إلىٰ حمّام السّوق، ثمّ خرجنا إلىٰ مكان الحفل ودخلنا وإذ بالمكان قد أصبح جنّة من كثرة الورود فيه ، كان هناك فتاتين عند المنصّة ريتا وواحدة أخرىٰ تشبه سارة، ولكن ما الذي سيأتي بسارة في هذا اليوم ومانيسا لم تصل بعد، اقتربت ريتا وبقيت تلك الفتاة علىٰ المنصّة لا بل اختفت، أين هي ؟ سألت ريتا: من تلك التي كانت معك؟ قالت: ألم تعرفها ؟ أجبت: لا شبّهتها بسارة، وإذ بها خلفي حقّاً، إنّها سارة متىٰ أتيت ؟ لقد أرادت مفاجئتي لا بل وكلّ هذه الزّهور المتناثرة في الوسط منها.

دخلت مانيسا مع أبويها وأختها، ذهبت لاستقبالها ثمّ قبّلت يدي أبويها وأمسكت بيدها أمامهم جميعـًا وقدتها إلىٰ المنصّة، كانت تلك الفرحة الأعظم في حياتي واليوم الأعظم أيضـًا، ولا أنسىٰ تلك البسمة المرتسمة علىٰ وجه مانيسا، وتلك النّظرات التي كانت تقول بأنّها تطير في عالم الفرح، في هذه الأثناء بدأت النّغمات والرّقصات، جاءت سارة وجلست بجانبنا رقصنا سويـًا وضحكنا وبين الحين والآخر تقول: "واللّه وشفتك عريس يا برهوم" وتقول لمانيسا: أترين هذا عجزت في اقناعه بأن يتزوّج ولم يكن يقبل بأحد، لكن أخيراً أتيت وكسرت له تلك العقليّة: وكانت تضحك وكأنهنّ تآمرن عليّ.

بدأنا بتوديع الأقارب والأحباب المدعوّين، ثمّ خرجنا مع الأصدقاء متجوّلين بين الشّوارع، وفي كلّ شارع دخلناه كان يوجد في زواياه ذكرىٰ لنا؛ تسكّع أو جلوس أو مكان أكلنا فيه أو حتىٰ نظرنا إليه، مكان تودعنا فيه وآخر التقينا فيه، جرّتنا كلّ هذه الأماكن وهذه الأوقات حتّىٰ نسير عريسين اليوم بسيّارة الزّفاف المزيّنة، وقد سندت مانيسا رأسها علىٰ كتفي وراحت تحلّق في عالم التّأمّل.

وصلنا إلىٰ البيت وودّعنا الأصدقاء، طلبت من سارة أن تكون هنا في الغد، دخلنا البيت بينما أغلق الباب دخلت مانيسا إلىٰ صالة البيت، وفجأة صرخت: ما هذا ؟! توجّهت إليها بسرعة، كانت طاولة مملوءة بالأطعمة والورود منثورة حولها والشّموع هي الضّوء الوحيد فيها، قالت: كيف جهّزت هذا؟ قلت: لم أجهّز شيء، كان هناك ورقة علىٰ الطّاولة فتحتها وإذ بها تقول:

" إبـراهيم صـديقي وأخـي، مانيسـا المخلّصـة لقلبـه مـن وجـع السّـنين، ألـف مبـارك، أتمنّىٰ لكمـا أيّامـاً سـعيدةً، أعتـذر لهـذه الهديـة البسيطة ولكن الوقت حكمني بها ".

صديقتك سارة

أوّل ليلة مع مانيسا ذكرىٰ ستبقىٰ حيّة دائما بكلّ تفاصيلها، حتّىٰ بذاك القرار الـذي اتّخذتـه بـأن يمنـع التّـدخين في البيـت ويسـمح علىٰ الشّـرفة وغرفـة المكتـب في الأوقـات الحرجـة، وبالعنـاق قبـل النّـوم والتّمسّك بقوّة ' و بالصّبح الذي بدأ بوجهها وشعرها المتنـاثر حـولي وبقبلة من شفتيها.

ذهبـت لتجهيـز قهـوة الصّـباح نـادتني وقالـت: أتحسـب أنّـك ستقبّلني وأبقىٰ نائمة يا حبيبي، جاءت بجانبي حتّىٰ أسحبها وأقبّلهـا ثانيـةً، وتقـول بعـدها خجـلا صـباح الخيـر يـا مشـاكس، هيّـا لنشـرب القهوة، جلست وفي عينيهـا النّعـاس، تغلقهمـا فيشـعّ السّـحر في أرجـاء البيت، وبعـد تحضير الإفطـار الأوّل سـوياً وبعـد أن أثبتـت براعتهـا في إعـداد الإفطـار، وهـو الشّـيء الوحيـد الـذي تعرفـه في عمـل المطـبخ، جلست بين أحضاني نشاهد التّلفاز وتثرثـر بكـلام غريـب لا أعـرف مـا معناه لكنّه مضحك، رن الجرس لا بد أنّها سارة، جلسنا سويـاً لتخبرنا بتوسّع أعمالهـا هنـاك، وقالـت: لـدي عـرض لـك كنـت تتمنّـاه مـذ كنّـا طلابـاً في الجامعة، سألتها ما هو؟ قالـت شـقيق زميلـي في العمـل مـدير دار نشر، ويستطيع نشر كتاباتك إذ أردت هذا و لا أظنّك سترفض.

أيعقل أن تأتي كلّ هذه الأشياء الجميلة معـًا، في الأمس زفافي مع الحبّ الذي انتظرته طيلة الأيّام، واليوم عرض لطالما تمنّيت أن يأتيني، ليقرأ أحدهم كلّ هذه الكلمات من سبع سنوات وأكثر.

أجبتها: طبعـًا موافق ولكن أحتاج فترة، كما تعلمين لا أزال في اليوم الأوّل من زواجي، لكنّني سأنظّم كلّ أعمالي وخلال فترة أخبرك كم من الوقت ستمضين هنا؟

قالت ليس الكثير بعد أسبوع ستنتهي عطلتي وسأعود، قفزت مانيسا وقالت سأحضّر غداء لنا، ضحكت وناديتها: اجلسي عزيزتي سأحضّره أنا، من المخجل أن نخرج سارة بلا غداء اليوم اجلسي معها و تحدّثا قليلاً ربّما تتّفقا في بعض الأمور بينما أجهّزه.

[الفصل ١٥] ثمرة حب

أصبح الحبّ مصدر النّور في هذا المنزل، وفي أركانه غفت فراشات وأزهار الأقحوان والتّوليب، يستيقظ في صباح كلّ يوم علىٰ نار قهوتي أو قهوة مانيسا فيداعب قلوبنا فرحـًا، علىٰ تلك الوسادة داعبت شعرها ونامت علىٰ كتفي، عند هذا وذاك الباب عانقتني وقبّلتها، في تلك الغرفة أغضبتها وفي الأخرىٰ أراضيها، بهذا البيت بدأت وحدتي وفيه أيضـًا كتبت لها راجيا لقاءها وفيه أيضـًا اجتمعنا وعشنا.

كان هذا الحبّ والزّواج هو تفسير ذاك الحلم الذي قالته لي أمّي ذات يوم بأنّ اللّه كتب لك عمراً جديداً.

عصراً أجلس مع مانيسا علىٰ المائدة التي حضّرتها فقد تعلّمت بعض الوجبات، في الحقيقة لديها نفس زكيّ في الطّبخ، لم أفقد تلك المشاعر التي تلبسني معها، و أظنّ أنّي لن افقدها فبعيدا عن عينيها وجمالها الفاتن أفقد رغبتي بالحياة، في ذلك الصّوت علامة لها شكل مفرغ في قلبي، كلّما تحدّثت امتلأ هذا الفراغ واشتعلت الأفراح فيه.

أخبرتها بأنّي سأبدأ الكتابة اليوم، سأجمع كل ما كتبت في السّنين السّابقة، دخلنا الغرفة سويّـًا وبدأنا نخرج الأوراق، لقد غزا هذه الأوراق اصفرار الزّمن، عددها كان كثيراً وكأنّني أمضيت دهراً أكتبها، قالت مانيسا: لم أكن أعلم أنّك تكتب لهذا الحد، ما الذي أصابك هل كان لديك عطش الكتابة، ضحكت وقلت: لا أعلم إن كان عطش

ربّما، في آخر الأوراق التي أخرجتها مانيسا ورقة أمسكتها وقرأتها وبعدها جاءت وعانقتني وقالت أنا هنا ولن أمضي، أمسكتها لأرىٰ ما فيها وكان

لقد مضىٰ...

من هو ؟

الحبّ. لقد مضىٰ خلنا كرهـًا بنا. مضىٰ وفيه من الذّكرىٰ بحار. مضىٰ بعد سنين فرح وأخرىٰ عجاف

ولماذا مضىٰ؟

لم يعد يحتمل. لم يستطع. كان فراغ الصّبر... اعتاد أن يمضي بين كلّ اثنين أيّامـًا قلّة.. مليئة بالضّحكات والمشاحنات والدّمعات.. أيّامـًا قلّة، الكذب فيها يسري في عروق العلاقات، فكيف لصبره أن يحتمل سنين فرح وحبّ صادق بعد كلّ هذا...؟

مضىٰ وترك خلفه شخص يحنّ إليه في كلّ ليلة، ويبحث عنه في كلّ زقاق وشارع. وبين أغصان الأشجار وفي لمعان النّجوم والأضواء

ألم يحن الوقت يا صديقي لعودتك، فالشّوق فيني قد بلغ الحلقوم، والآن الحزن والموت والمأساة أنا.

نظرت إلىٰ عينيها، كان الخوف قد غيّرها، شددت علىٰ كتفها وقلت: كان ذاك قديمـًا أمّا الآن فنحن الجسد الذي يسكنّه الحبّ ولن يستطيع الذّهاب إلىٰ أيّ مكان، تبسّمت وقالت: هيّا سأحضّر لنا قهوة وأجلس بجانبك هنا.

بدأت بقراءة بعض تلك الكتابات بسرعة، و كنت بعد كلّ ورقة أضحك مرّة لأنّ القول المكتوب له ذكرىٰ جميلة، ومرّة أخرىٰ لتفكيري المحدود وقتها، أو لأنّ المسألة بنظري الآن لا تستحقّ حرفًا، لقد بدأت أرىٰ ذاك النّضج الذي يقول فيه ويليام شكسبير "النّضج هو أن تدرك أنّ معظم الأشياء لا تستحق ردّة فعل"، خلال تلك القراءة كنت أنظر لتلك السّنين وكأنّها قصّة حدث فيها أشياء كثيرة؛ خيبات وأحزان وأفراح، وكلّ منها لها موضع أساس بهذه الشّخصيّة التي تجلس خلف هذا المكتب تشرب من فنجان قهوتها وتشعل سيجارتها وبجانبها تلك الرّقيقة، التي تحدّق بي وبين كلّ نظرة رشفة قهوة أو نفخة من سيجارة، ما هذا؟ إنّها المّرة الأولىٰ التي تدخّن فيه مانيسا ما الذي حدث ؟ ما الذي غرزته تلك الكلمات في حبيبتي أهو حزن أم خوف؟! تبًا لكلّ هذه المشاعر التي تلقيها بعض الكتابات في صدورنا، أخذت بيدها إلىٰ غرفة نومنا فنامت علىٰ كتفي بعد نصف ساعة وأنا أحاول محادثتها ولكن لا إجابة.

بدأت معركة الكتاب الأوّل، في البداية كنت أمضي ساعات قليلة من اللّيل، لكن الشّغف الذي كان يسكنني لرؤية هذا الكتاب كان يقول أن أقضي المزيد لإنهاء هذا بسرعة، وما كان لي إلّا أن أسعىٰ وراء هذا إلىٰ أن وصل الأمر للتّقصير بحقّ زوجتي، التي كانت تنظر من خلف الباب وفيها من الحرقة شيء كثير، الأمر الذي أيقظني من هذا الجشع هي تلك اللحظة التي رأيت مانيسا تشعل سجائرها في منتصف البيت وتعضّ علىٰ أظافرها وفيها من الغضب والحزن ما لا

يوصف، في تلك اللّيلة جلست أفكّر بالذي اقترفته يداي، أكان هذا الوعد الذي قطعته لَها ولأبيها ولنفسي مزيفاً؟

هذا غير مسموح به، بدأت كتابة بعض كلمات الاعتذار ومع باقة من أزهار التّوليب تركتها بجانبها علىٰ وسادتي قبل الذّهاب إلىٰ العمل وجاء في ذاك الاعتذار :

إن صمتت الشّفاه
هذا لا يعني أنّ قلبي قد صمت
ولا يعني بأنّ لهفتي للنّظر إلىٰ عينيك قد ماتت
ولا شغفي بسرقتك من الأرض قد بردت
ولا ماتت أشواقي لاحتضان يديك
و لا أنّ يداي قد تناست عناق خدّيك المشرقين كسمائي
أو حظّي الذي ألقاني إليك

❊❊❊❊

إن صمتت شفاهي لا يعني أن الفكر قد غفىٰ
عن لهيب شفتيك أو اهتزاز الأرض تحت قدميك
ولا أنّ أذني صمّت عن سماع لحن هدير صوتك
إن صمتت شفاهي فلم يصمت بعد الصّوت
الذي يناديك في كلّ صباح ومساء أقبلي يا فرحتي
إن صمتت شفاهي فلن يصمت الحبّ الذي أعلن الطّاعة لك

❊❊❊❊

إن صمتت الشّفاه يا تميمتي
لم يصمت قلمي الذي يرقص إن أقبل وكتب اسمك
ولا الشّعر الذي اقتبس القافية من حاجبيك الأسودين
ومن مبسمك ورائحتك ورسمك

****

إن صمتت شفاهي فأمطار كانون تخبرك
عن جنون الهوىٰ في منتصف الطّرقات وعلىٰ أطراف المدن وأمام الحانات
إن صمتت شفاهي فلم تنزل بعد رايات الولاء لقلبك
إن حدث وصمت كلّ شيء في أركاني
فإنّ الحبّ في جوفي يصيح بأصواته كالجيوش تعالي لي

كانت تلك اللّحظة بالنّسبة لمانيسا كفيلة أن تمحو وجع ألف عام، هذا ما قالته بعد معانقتي عند عودتي من ساعات العمل، وكانت قد حضّرت طاولة من الأطعمة التي تحبّها، وكأنّ حروفها التي كانت تكتبها صارت أطباقاً شهيّة بعد أن كانت جاهلة في هذا، وأخبرتها بأنّه اليوم لا كتابة فيه، فهو مخصّص لها فقط وأنّ علينا إعادة القليل من أيّام ما قبل الزّواج.

دخلت إلىٰ مكتبي بعد الطّعام لا لأكتب ولكن لأخذ علبة السّجائر، وإذ برسالة قد ختمت بزهرتي اقحوان إحداهنّ بيضاء والأخرىٰ حمراء

" زوجي.. حبيبي... يا عاشق الأقحوان
الصّفح منك يا عزيزي فالنّفس قد راوغتني بأنّ الحبّ قد غفىٰ، وأن الشّغف لعيني قد مات لقد عشت لحظات ظننت بها أنّي وقعت في فخّ الزّواج، ولكن بعد هذه اللّحظة التي عشتها، ألقيت رصاصتك علىٰ تلك الشّريرة التي وسوست لي بكلّ هذا.
لن اتركك تعيش من دون رسائلي حتّىٰ وإن كنّا في الكوخ ذاته نغفو ونأكل ونحيا.
أمّا بالنّسبة لهتين الزّهرتين فالحمراء كناية عن حبّي لك وللحنين، وأمّا الوردة البيضاء فهي لقلبك الطّيب و النّابض بمشاعر من بعيد
زوجتك وحبيبتك وحلمك الذي آتىٰ"

للحظة ظننت أنّ أناملها نسيت غزل الكلام بعد أن أجادت الطّهي، ولكن بعد هذا أظنّ أنّ مرض الكتابة قد انتقل إليها أيضـًا.

في هذه اللّيلة سنزور كلّ المعالم التي شهدت ولو للحظة علىٰ حبّنا، بدأنا من ذاك الكرسيّ الذي التقينا فيه وعقدنا اتفاق الصداقة، ثمّ إلىٰ الضّجيج الذي هربت معها إليه تاركـًا هدوء وحدتي، إلىٰ الأرصفة والمحالّ، ومن جانب قلعة دمشق في ذاك المكان الذي خطّت فيه أوّل رسالة لي و سألتني ذاك السّؤال من أنت؟، ومن بعدها إلىٰ أزقّة الياسمين، وصلنا إلىٰ ذاك المكان الذي عرضت فيه الزّواج عليها،

جلسنا تحت تلك الياسمينة نتذكّر كلّ تلك اللّحظات التي عشناها ونضحك.

أترون يا أصدقائي، كنت في الأمس أغضب من الكثير من الأشياء التي حدثت، لكن في النّهاية بانت لي أنّ هذه الحياة هي أشبه بلعبة الصّور المقطوعة، أمّا الأحداث التي تحصل خلال الأيام هي عبارة عن القطع الصّغير، كلّما ركّبت هذه القطع بدأ شيء من الصّورة يظهر حتّىٰ نصل إلىٰ آخر قطعة، فتظهر لدينا لوحة كاملة، والأمر ذاته كان في كتابة كتابي كان عليّ تجميع كلّ تلك الكتابات وربطها مع الواقع حتّىٰ أكمل هذا الكتاب.

عاد الحبّ ينبض من جديد مع مانيسا بعد أن تعّرض للصّمت

عاد الحبّ لينشد من جديد مع مانيسا بعد أن تعرّض للصّمت لبعض الوقت، وفي جلسة معها سألتني: أنت تنظم كتاباتك ولكن السّؤال الذي يشغل بالي مذ بدئك بالكتابة ما موقع الكتابات التي كانت لي في هذه الفترة؟

أجبتها :هي في النّهاية عبارة عن بعث جديد للحياة بروحك واسمك وتفاصيلك وحتّىٰ برسائلك.

ولكن ما لم أجد له جواب وقد جلت الكثير باحثاً هو سؤالي
من تكونين مانيسا.؟ ومن ستكونين..؟
وسؤالها لي، من أنت..؟

جاءني الجواب أخيراً في حلمي عندما سرقني النّوم بعد يوم شاقّ في العمل وأنا متكأ علىٰ جناحك، إذ رأيت نفسي في نفق تحت الصّخور أمشي وقد نال التّعب والعطش والجوع منّي و بعد مسيرة كانت طويلة رأيت نوراً يخرج من الاتجاه الذي أمشي نحوه، رحت أركض مسرعًا تعثّرني بعض الحجارة التي نبتت من الأرض ولكنّني أركض بلهفة حتّىٰ أصل، و عندما وصلت كان النّور أنت يا مانيسا، أمسكت بيدي وإذ بعالم كبير في نهاية هذه النّفق تفوح منه رائحة العشق، وينبت في كلّ مكان أقحوان ومزارع توليب وثمار كثيرة، قلت لي أنّها ثمار الحبّا التي تخلق عند لقاء المحبين، وبعده استيقظت و هي تنظر بعينها إليّ، فقلت لها: في اللّقاء الأول كنت أسأل سؤال

من تكونين.؟ ومن ستكونين... ؟

وسألتني من أنت؟

و ها قد أتاني الجواب يا عزيزتي

أمّا أنا فذاك التّائه في نفق الحياة.

وأمّا من تكونين فأنت ذاك النّور الذي يلمع في نهاية النّفق.

ومن ستكونين، فستكونين الملاك الذي سيرافقني ويرشدني في عالم الحبّ والهوىٰ.

تبسّمت وقبّلتني وقالت: ولن أترك يدك أبداً.

اليوم سأكتب آخر كلمات هذا الكتاب وبعدها سيذهب للنّشر، ولكن ماذا سيكون الختام ؟ سيكون رسالة إلىٰ الملاك الأبيض، إلىٰ مانيسا، إلىٰ الحلم المنتظر، إلىٰ النّور السّاطع في نهاية النّفق.

واليوم أكتب لك رسالتي..
أكتب حبّي.. وشعري...
أكتب نبضي..
اكتب لك شكري..

❊❊❊❊

أنت القطعة التي نزلت علىٰ قلبي،
علىٰ طبق مكلّل بالدّعاء..
معجزتي أنت...
فكري..
ومخيّلتي...
حبر قلمي...
وملهمتي..
تعالي واجلسي علي عرشك.
تعالي وألقي علىٰ حياتي سحر حبّك.
لا أريد اختلاط حدودي بحدودك سيدتي...
ولكن أريد أن أوقّع عقدا للحياة معك..
في كلّ صباح أصحو علىٰ لون عينك..
وأقتطف الأقحوان والتّوليب والياسمين من خدّيك.
وأخلق في كلّ يوم معجزة من شفتيك.
وأسطّر..، وأسطّر ألحان الشّعر من لحن كعبك.

❊❊❊❊

يامن أتيت الآن...

أتعرفين أنّك خلقت معجزة من أوّل طلّتك...

وزرعتي علىٰ ملامح قلبي الكثير.

ضحكة.

وفرحة...

وسعادة.

وأمل..

وحياة...

فرحة. كتلك التي في وجه عاقر.

قد أنجبت طفلاً بعد عشرين عامـًا...

❊❊❊❊

شكر لأنّك كنت..

شكراً... لبسمتك، لعينيك، لخدّيك، لقامتك

شكراً.. لحديثك المنسوج من خيوط شفتيك

مثل المطر..

شكرا... للرّسائل المخطوطة بعبق الزّهرة

شكراً... للسّهرة المملوءة بخضار عينك

وحنان لمسة يدك..

للنّظرة..

للضّمّة.

لحنانك الصّافي مثل العاصي

شكرا.. للقدر الذي قد أنعم عليّ كما أنعم علىٰ يوسف أن قرّ عينيه بوالده وأخوته